طيور العتمة

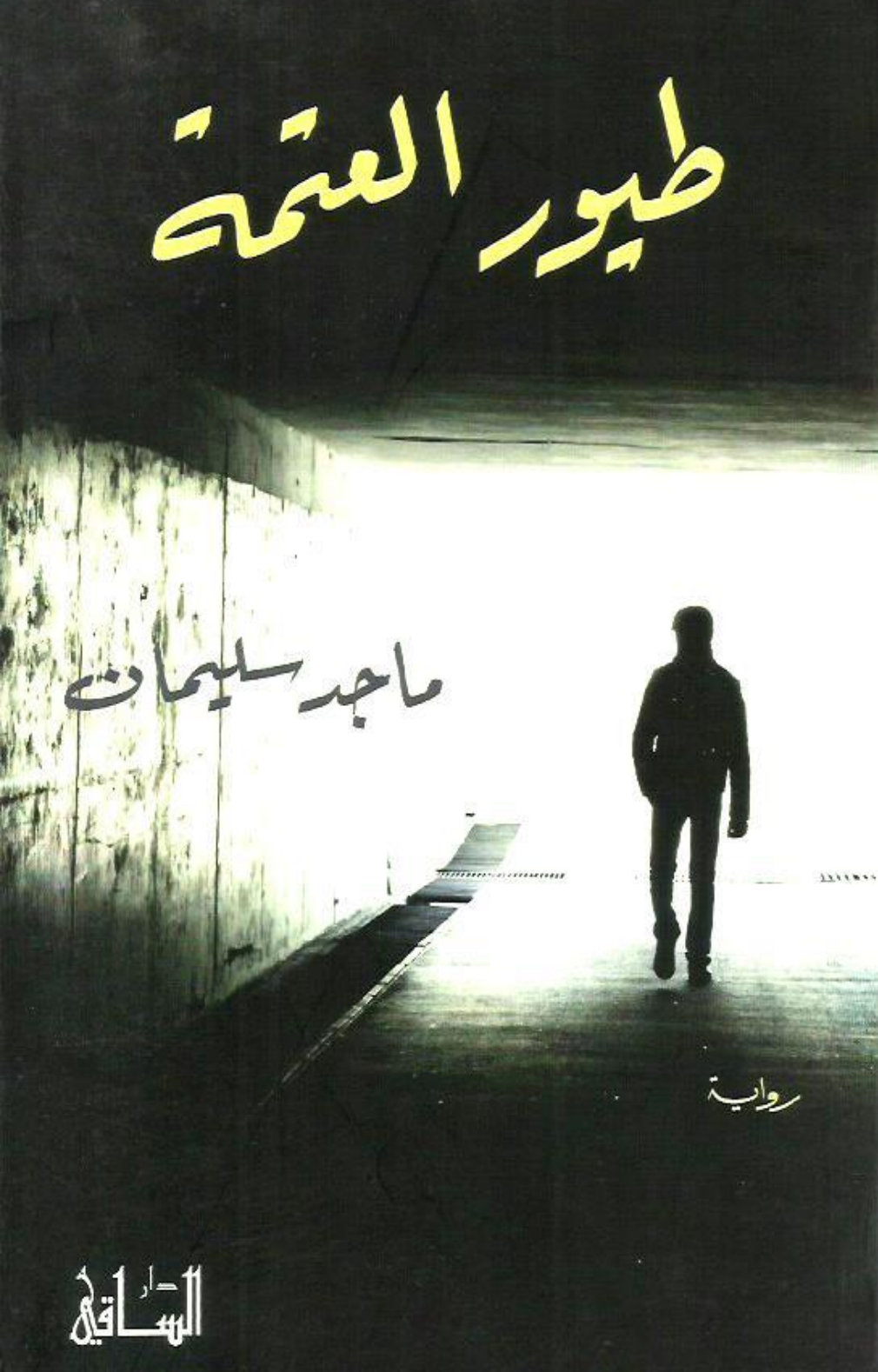

ماجد سليمان

رواية

دار الساقي

طيور العتمة

صدر للكاتب

عينٌ حمئة (رواية)، طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن ٢٠١١
دخلت ضمن القائمة الطويلة للرواية العربية ٢٠١٢م.

دمٌ يترقرق بين العمائم واللحى (رواية)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠١٣

نجمٌ نابضٌ في التراب (قصص)، مؤسسة الانتشار العربي بالاشتراك مع أدبي الجوف، ٢٠١٣

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

ماجد سليمان

طيور العتمة

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-6-14425-792-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866 1-961+، فاكس: 443 866 1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

حين تُبهمُ الهويّة، وتُصهر الحريّة، ويتداعى بنيان العدالة، وتصبح قيمة الإنسان مجانيّة، ستُحجِم الأنفس وتكمل طريق الغياب عن أوطانها، فما هذا الوطن إلا ليلٌ مسجور، وشعبٌ مقهور، وسيفٌ مشهور، وقبرٌ محفور.

م س

إضاءة

هذا النصُّ محض خيال، وما ذُكر لا يجب أن يُحال إلى أحداثٍ وشواهد حقيقيّة أو أشخاصٍ حقيقيين...

الكَرَاريس

- الكُرّاسةُ الأولى: يَدُ الموت تَتحسّسُ الأحياء.
- الكُرّاسةُ الثانية: نافذةٌ أكبر على الشقاء.
- الكُرّاسةُ الثالثة: أشباحٌ تُطلُّ من الشُقوق.
- الكُرّاسةُ الرابعة: أعينٌ معصوبةٌ بالجمر.
- الكُرّاسةُ الخامسة: غِربانٌ تنقرُ العَتَمَات.
- الكُرّاسةُ السادسة: أُمنياتٌ مقلوعة الأعين.
- الكُرّاسةُ السابعة: أفئدةٌ متخمةٌ بالألم.
- الكُرّاسةُ الثامنة: حديدٌ يئنُّ في المعاصم.
- الكُرّاسةُ التاسعة: زُمرةٌ تُدير ظهرها لأحلامها.
- الكُرّاسةُ العاشرة: سجونٌ تُدحرج النُزلاء.

الكُرّاسةُ الأولى

يَدُ الموت تَتَحَسَّسُ الأحياء

١

أَفَقتُ فجراً، وجدتني قد تَوَسّدت حذائي وفانيلتي القطن، وكأنّ حشرةً أكلت أجفاني، ملامحي وكأنّني خارجٌ من قبرٍ قديم، فطنت للرفاق وحديث أحدهم:

– لم أنتسب لبلاط، وعلاوةً على نكد حظّي وحقي المبخوس عشتُ مُنتقصاً مَحروماً، لكن حاشا أن أكون كلباً للوزراء...

كان هذا قول بنيامين، بعد أن مسح شفتيه بظهر يده اليمنى المعروقة من حرارة المكان، وهم يتحلّقون حوله كنتف الثلج على

جبلٍ أسمر، واليأس أشبه بمخدّرٍ عن الإحساس بالوحشة في هذا المكعّب المظلم، إلا من نافذةٍ تقارب دائرة وجه الآدمي، يُضيء منها النهار من الزاوية المقابلة للباب الفولاذيّ الرفيع، الذي دُقّت صفحته بدوائر حديديّة بحجم الكف وأُوصلت ببعضها بأسياخ دقيقة.

زجّوا بنا هنا على أثر اتّهامنا بالانضمام إلى خليّة صغيرة كادت أن تضبط مُخطّطاً انقلابيّاً في قاعدة الجيش، وذلك بدعم ماليٍّ عالٍ، وأجندةٍ متعاونةٍ داخل السرايا والكتائب، وبعض القيادات الكبيرة... كنّا ثلاثة عشر ضمن جماعةٍ كبيرة من الذين رفعوا أيديهم للسماء استسلاماً بعد حصارٍ شديدٍ مفاجئٍ من الدولة لإنقاذ الحالة من الاستشراء والتوسّع. أوثقوا الأصفاد الثقيلة في معاصمنا، وأحكموا الحديد العريض على كعوبنا، وساقونا في إثر بعضنا، وصليل السلاسل يطنّ تحتنا، تقتفينا ألسنة السياط الطويلة وَدَقُّ فوّهات بنادقٍ طويلة الأعناق في ظهورنا ورقابنا.

كنت الثامن من المَسوقين، أُقصِّر خطوة وأتقدّم اثنتين، وبالعكس، كلّه بحسب المَسوق أمامي، ضرورة أن أتبعه كيفما أسرع وأبطأ، عكس الذي خلفي، الماضي في شتمي والبصق على رقبتي كلّما انجرفتُ مع سرعة مَن أمامي وجرفته خلسةً:

- أيها العتيّ.

-

- أرعنٌ لئيم.

-

– علامَ تستعجل؟ ليس أمامك غير قفصٍ ينتظرك لتُحشر فيه كالكلب.

لم أُجبه ولم ألتفت إليه، فقط ألوي رقبتي من برودة بصاقه، وأُدير أذني عن زعيقه المحمّل بالبذاءات.

٢

اسمي برهان، عمري خمسٌ وأربعون سنة، منفصلٌ عن زوجتي دون أبناء، وذلك نتيجة مرض السكريّ الذي عطّل حياتي بما فيها الاتصال الزوجي، وعُسرٍ عن شراء الدواء والمقوّيات بسبب ضيق اليد وغلاء المنتج.

رفيقي ميمون (٣٨ سنة) عائل لأسرة من أبوين مُقعدين، وأختين إحداهما نَكّلَ بها مرض الصرع وأتلف حياتها، وهو أعجز من أن يوفر لهم حياةً أقلَّ من الفقيرة، وأيضاً: مغفور (٥٣ سنة)، إلياس (٤٧ سنة)، نضال (٥٠ سنة)، مَعْن (٥٢ سنة)، عابد (٤٤ سنة)، بنيامين (٣٩ سنة)، كريم (٤١ سنة)، عبد السلام (٤٩ سنة)، سعد الدين (٤٢ سنة)، ربيع (٤٠ سنة)، حيّان (٣٧ سنة).

أثبتوا علينا نحن الثلاثة عشر براهين القضيّة دون اتّباعٍ سليم لخيوطها، فدفعونا في سجنٍ أنتن من الحظائر والزرائب معَ جماعةٍ من المساجين والموقوفين، الذين نُفّذَ في بعضهم الإعدام ليلتها وبعضهم الآخر نُقلوا إلى سجنٍ آخر ظهيرة اليوم التالي.

سجنٌ رفيع السقف، يدلف منه ماءٌ ملوّثٌ ألحق الرطوبة بأرضيته

المسوّاة من الإسمنت والحديد العريض، مع كلّ قطرة تقطر أنّةٌ ملتهبة من صدور الرفاق، وتتشعّب في أضلاعنا كلّ مصيبة. نجلس متقابلين كرهبانٍ مُسنّين: حدبات ظهورنا من وقع الوَجَع، وسُحُبُ المخاط المنحدر فوق شفاهنا، وظهور أيدينا التي لا تفارق أعيننا، ما كان ينقصنا غير عصيٍّ وقلنسوات سوداء ونكون صالحين لأن نتبوّأ المكانة الأرذل في الحياة. على باب السجن لافتةٌ صغيرة:

"رفقاً بالسجناء فهم آدميون"

ضوء مصباح يُنيرُ نصف وجهي، مُرخياً سمعي للريح تهدهد في الخارج، وقعُ أقدام الجند المهيبة تُشعرنا وكأنّها تدفع الموت بسرعة إلينا، صوت انزلاق المفتاح الأسود ذي السنين الطويلتين في ترباس الباب يبثُّ الرعب تحت جلودنا المتّسخة.

دخل جنديان: الأول قصيرٌ بدين، حليق الشاربين كثيف الذقن، صغير الأنف والعينين، بيمينه سلسلة تنتهي آخر حلقاتها بحلقة كبيرة أُديرت حول عنق كلب أسود كثّ الشعر، أحمر العينين، طويل النابين، مُتدلّي اللسان الشديد الحُمرة، وقعُ لُعابه على الأرض أشبه بصوت بيضٍ يتكسّر، يدور بسرعة بين قدمَي الجندي؛ بينما الجنديّ الثاني جسيم، مربّع الوجه، أسمر البشرة، واسع الفم، عيناه جاحظتان، ينادي الكلب:

– هه هه يا سريح، هه هه سريح.

تزيد سرعة الكلب من بين أرجلهم، وخبط قوائمه ينبئ بأجلٍ يقترب. نظرا إلينا ليقول الجندي الجسيم هازئاً:

– أتحبّون الحياة؟

أتبعه صاحبه بضحكة ارتدّ صداها عن سقف السجن المليء بخرائط الماء الملوّث، ثمّ أمراناً بالوقوف دون حراكٍ جميعاً كالأحجار... مغفور كان السجين الأول الواقف في رأس الطابور. أطلق الجنديّ السلسلة من يده ليهجم الكلب وَلُعابه يَخْلُفه خيطٌ طويلٌ متعرّج على حوافه قطعٌ بيضاء صغيرة، تجاوز مغفور ودفعني من بطني لأسقط على ظهري، وأخذ يدفعني بمنخريه الواسعين ولعابه يُلطّخ وجهي وكتفَي، أسمع أصوات رفاقي استغاثاتٍ لا تنقطع، انتظرت أن يعضّني عضّة الفناء لأستريح من المكوث في هذا السجن الصندوق، لكنه تركني فجأةً أتخبّط في بِرْكة لعابه واتجه نحو ربيع وعضّه في ساقه عضّةً جارحة وأخذ يجرّه منها حتّى ارتطم بالزاوية ذات الأسمنت المتكسّر، التي ينام فيها ربيع متكوّراً كالعجوز، صراخه باعثٌ على الشفقة بشكلٍ مبكٍ، وهو يضغط على ساقه من حرارة الأنياب وألم الجروح.

ضَحكُ الجنديين بالكاد يُسمع من قرقرة بلعوم الكلب الصاخبة. أفلت ربيع ساقه من فكّه، ليستدير نحو الباقين المتراصّين كالخراف، عظامهم تركل بعضها من الخوف. اندفع إليهم ليصطدم بميمون صدمةً قذفته إلى السقف وأعادته إلى الأرض بجرحين شديدين، الأول في فخذه اليمنى والثاني في ذراعه اليسرى، ليجثم عليه وكأنّه ثورٌ إسبانيّ داكّاً عظامه بثقله، ومنخراه يضغطان على رأسه من جهة أذنه اليمنى.

تفرّق البقيّة في السجن كالقطط المطاردة في صندوقٍ كرتونيّ. رفع الكلب رأسه مُخلّفاً زبداً من لُعابه تسرّب فوق عنق ورأس ميمون

منحدراً إلى الأرض، وراح يطرح البقيّة واحداً واحداً، داعكاً الأعناق بمنخريه وَدَفْق لُعابه.

أنين ربيع يعلو ويخفت حتّى غدا مُتقطّعاً مُنبئاً عن غيبوبته. وقبل الصباح أضجعاني وأطفأا بين عينيّ سيجارتين بيضاوين لهما جمرتان قابستان، وصوت ضحكهما يلتحم بصراخي من ألم الكَيّ... وكذلك فعلوا بالباقين.

٣

شيءٌ من ألمي غسلَهُ الضوء الشحيح المتّصل بعينَي من نافذة السجن الصغيرة. دعكت بأصابعي المتّسخة أسفل عينَي، فتداعى إليّ أنين ربيع وهو يضغط على أعلى ساقه ليُهدّئ ألم العضّة التي ألحقت بها تسعة جروحٍ غائرة ليلة البارحة. أشفقت عليه كثيراً وهو يركل الأرض بكعبه الأيمن ويصرخ ألماً.

رائحةٌ كريهةٌ جداً شممتها حول عنقي وكتفي، لُعاب الكلب قد أصبح أكثر التصاقاً بجلدي، وكأنّه منه وَفِيه. اتّكأت على مرفقَيَّ وبالكاد جلست، آلامٌ فظيعة تربض على عظام ظهري وفقرات عنقي، وإحساسٌ مؤلمٌ بالوخز يركض تحت جلدي.

على الأرض بقايا اللعاب ما برحت رطبة، وبعض خيوطه الصغيرة تمكّن منها الجفاف. رفعت ثقل أجفاني فرأيت رفاقي كالجذوعِ المسنّدة على الطين؛ أجسادٌ أوهنها الخوف. ناديت بصوتٍ جافٍ مرتعد:

- ربيع...!

لم يجب، فما هو إلا قطعةٌ استحالت صراخاً يعلو ويخفت،

وعَظمةٌ تركل كلّ صلبٍ حولها... انبثق الضوء أكثر في المكان، فصحا الرفاق على خيوطه الدقيقة وهي تحكّ أجفانهم المتهدّلة. نظر ميمون إليّ: يداه مجعّدتان سمراوان عليهما آثار ضرب، وجروحٌ صغيرة على رؤوس أصابعه، وخدوشٌ على وجهه وخاصةً على خدّه الأيمن، ومشرومٌ أعلى شفته، آثارُ دم على جبهته وقِطَع لعاب الكلب تلوّث عنقه وصدره. ناداني بلكنةٍ يُتّخمها القنوط:

– أين الموت؟!

ابتسمت بشفتين يابستين فيهما انسلاخٌ جاف وأجبت:

– ليس ببعيد.

بلعتُ ريقي المرّ وأردفت:

– دعنا ننتظر.

اقتفت إجابتي صرخة ربيع التي أنبأتنا أنها أطفأت آخر جذوةٍ للحياة فيه، فتقاذف الجميع النظرات المتأسّفة وأحنوا رؤوسهم.

٤

دَنَت الظلمة من الأرض، ونحن في ظلمتنا المستمرّة. جثّة ربيع يبست وانكمشت أطرافها، عيناه نصف مغمضتين، ومخاطٌ يقف على منخره الأيمن مُتصلٌ بخيطٍ من الدم كان قد نطّ من شفته قبل موته. أرتجف من البرد واهتزاز رأسي وجذعي مضحكٌ مبكٍ، وميمون لا يعرف من الحديث إليّ غير:

– أين الموت؟

طمأنته بإجابةٍ غير مُتحمّسة:

– سنموت يا ميمون اطمئن ما عدنا بعيدين عنه...

ضغطتُ على نفسي ناهضاً بتثاقل، وكأنني عجوزٌ يجرّ قفاه عشرات العقود، نطقتُ بلسانٍ أعوج:

– ربيع... ما طعم الموت الآن؟

شعرت وأنا أرى بياض أهدابه وكأنّه يجيب:

"أَحَنّ ممّا أنتم فيه..."

التهب صوته في سمعي وكأنّه لم يمت:

"أَحَنّ ممّا أنتم فيه...".

ليجذب ألمي أكثر سؤال ميمون:

– أين الموت؟

يعيدها، لكن الموت لا يجيء. فاحتْ من جثّة ربيع رائحةٌ خانقة، عَفَنٌ يَخنق المكان، فدفعت وجهي في سياج الباب منادياً:

– يا جندي، يا جندي.

لم أسمع غير قطرات الماء التي تسقط من سقف الممرّ الفاصل بين السجون، لا أثر لوقع أقدام، صمتٌ يخالط رائحة الجثّة وينطق بالموت الذي لا يجيء:

– أين الموت؟

ردّدها ميمون فصحت به:

– ألا تكف عن مناداته... هو لن يجيء قبل أن يُشبعونا عذاباً...

البرد يزحف أكثر في المكان، وقطرات الماء أحدثت نَقعاً حَامَ حوله البعوض وتكاثر. التقطتُ الجثّة من القدمين وسحبتها نحو الباب، وميمون ينظر إليّ بحزن، ثم صرخت بالممرّ:

– يا جندي، يا جندي.

فسمعت ربيعاً من وراء الموت يقول: "الموت حنووون...

لحظات حتّى سمعت صوت أقفال ومفاتيح تُخشخش في الممرّ، تباريها أقدامٌ تمشي على أقلّ من مهلها، وصوت مضغ مزعجٍ ينطلق من شفةٍ يملأُها اللعاب. جذبت صوتي من عمقي منادياً:

– ياااااا جندي.

ضاع صوتي في طول الممرّ وعرضه، لكنه وصل إليه، حيث تسارعت خطوات الأقدام وازدادت خشخشة المفاتيح والأقفال،

وكلّما اقتربت زاد تسارع الخطوات وتضاعفت الخشخشة، حتّى فاجأني بوجهه الكبير المربّع يضغط على وجهي الصغير المطلّ من بين السياج سائلاً بغضب:

– ما بك؟

أبعدتُ وجهي عن أنفاس فمه الكريهة التي تَبِعَت سؤاله، مشيراً إلى الجثّة بصوت مُتقطّع:

– ر ر ب ـ ب ـ يع... مات!

وبهدوء أخذ يُدير المفاتيح في يديه باحثاً عن مفتاح الباب، وبأقلّ من الاهتمام أولج المفتاح ودخل ليرتّد الباب عن كتف الجثّة. دار حوله وهو ينخزه بعصاه منادياً:

– ربيع، ربيع...

قلت له بحرارة:

– تنادي ميتاً يا هذا؟!

دقّ صدري برأس العصا:

– أغلق فمك.

ثم سحب جهاز النداء من مخبئه في جانب بنطاله طالباً:

– ابعثوا لنا بالطبيب.

أطال النظر في المكان وفي السجناء الذين استحالوا حشراتٍ بغيضة، ثم نهرني:

– عُد إلى الوراء واجلس كما كنت؛ كالفأر... أَسَمعت؟

تراجعت خطوات إلى الوراء حتى أوقفني الحائط المظلم فانزلقت بظهري عليه واستويت القرفصاء، وبعد عشرين دقيقة تقريباً حضر

طبيبٌ طويل، حنطي البشرة، واسع العينين، طويل الأنف، يمشّط شعره إلى الوراء بطريقة ساحرة، وخلفه أربعةٌ من عاملي النظافة. أدار سمّاعته على صدر الجثّة وأعادها، ليقول بانزعاج:

– لقد مات من ساعات.

أشار الجندي لعمّال النظافة بأن يحملوا الجثّة، فأحاطوا بها وأولجوها في كيس بلاستيكيٍّ سميك، ورَشّوا مكانها بالماء، ومضوا مغلقين الباب خلفهم بقوّة، وصوت المفتاح يقرقع في الترباس بسرعة، ثمّ ابتعدت أصواتهم وهم يتجاذبون كيف مات.

الكُرّاسةُ الثانية

نَافذةٌ أكبر على الشقاء

١

عند احتماء الظهيرة وضعوا لنا ثلاثة صحون من الأرز المسلوق فوقها قطعٌ صغيرة من لحم الدجاج، هجمنا عليها كالضباع الجائعة، نأكل كالمبعدين عن الطعام لسنين، وحين أخمدنا عراك أمعائنا دخلت علينا جماعة من الطوال الجسام وساقونا في سلاسل طويلة شديدة الوثاق على معاصمنا، وأخرجونا تحت الظهيرة كالقطيع، وصلبوا أجسادنا في جهنم الشمس على أخشاب غليظة كأرجل الفيلة، عالية مقدار ثلاثة رجال لدرجة جعلتني أرى ديدان الأرض وكأنها تتمنى سقوطي لتنغمس في لحمي... تذكرت فراق كاتلين،

وأمنيتي في أن أخطفها إلى صدري وأُمرّغها بالقبلات.. تراخى جسدي ووقعت متدلّياً كالخرقة المبلّلة، فأعادوني إلى السجن في نصف غيبوبة، تُفرز مسامي عرقاً أبيضَ، وأعضائي كأنّها محقونة بالماء.

أفقت والقمر في أوج اكتماله، صنع ضوءُه إطاراً مربّعاً بحجم النافذة ينعكس أمامي، رأيت فيه ملامحي: انطفأ شبابي، ووجهي النّضر غدا كالرغيف المحروق، اتّسع منخراي، منابت شعري انقلبت بيضاء مُريعة، وشعر ذقني أغلبه تساقط من نَتنِ جلدي، وبعضها طال أكثر، عظم وجهي بدا بارزاً، وبين شفتَي حصل انفراجٌ متوسط. لحظتها شعرت بميمون يكلّمني وكأنّه يجاهد لسانه قائلاً:

- الموت يبدأ من الأطراف.

ضحكتُ ساخراً بأسنانٍ بدت في غاية الاصفرار المخلوط بالرماديّ، معلّقاً:

- بدأ من الأطراف أو من العظام، يبقى أخيراً هو الموت.

ثمّ أشرت إلى السلك الحلزونيّ المتدلّي من السقف كالمشنقة وقلت:

- باستطاعتك الموت إن كنت مستعجلاً.

هزّ رأسه وهو يقول:

- اشتقت لاحتساء القهوة.

التفتُّ إليه ساخراً:

- ألم تشتَق لدخان السجائر أيضاً؟

-

– لم تُجب؟

فلطمني بكفّه السوداء فازداد ريقي ورفعت حاجبَيّ، وهو مُسلّطٌ نظره على وجهي ساخطاً:

– نيّة الموت معلّقةٌ في أغصان روحي مُذ أولجوني هنا.

لمست في كلامه انكساراً وخذلاناً، فازداد يقيني بشدّة اكتوائنا في هذا الجحيم وبأنّهم رهنونا لشقاءٍ طويل.

٢

حين تسرّب الليل بكثافة في المكان، حيث الفجر قاب وصولٍ أو أدنى، خشخشة أسلحة وأصوات رجال يمضغها التوتّر، وقفوا خلف الباب كالمتشاورين، ثم دفعوه ومفتاحه متروك في ترباسه، قصدني ثلاثة سجّانين طوال، وجوههم مقنّعة بالصوف الأزرق وأعينهم تسبر من فتحات مدوّرة، أكفّهم تسترها قفازات بيضاء مبتورةٌ أناملها لتبدو أظافرهم غير المدرَّمة. وقف أحدهم ويده على الزناد آمراً، بعد أن ركلني في مؤخرتي:

– انهض.

أزحت الغطاء المعبّأ بالبكتيريا عن رِجلَي، وما إن استندت على الحائط لأقف حتّى أرسل إليّ ركلته الثانية والثالثة في مكانٍ واحد قرب ركبتي اليمنى، فالتقطني ثلاثتهم وشرعوا يجرّدونني من ملابسي، مبتدئين بقميصي ومنتهين بجوربَيّ القذرين وحذائي الممزّق، يباري ذلك ركلٌ وبصقٌ لم أشعر به لاعتيادي عليه مذ زجّوا بي هنا.

وفي أقلّ من ثلاثين ثانية استويت لحمةً لا يسترها غير بُقَع الركل والجروح المبعثرة عليها، لا أملك غير أن أستر عورتي المغلّظة بيدي

وهم ينخزونني برؤوس بنادقهم في أماكن محسوسة مني. ساروا بي عبر الممرّ جاعلين إياي أمامهم أُهرول من دَفعهم إياي، وكأنّني قطٌ أجرب يطارده صبية الحيّ.

هدأت هرولتي وأبدلتها مشياً، حتّى لمعت دائرةٌ صغيرة من الضوء انفلقت من بابٍ في آخر الممرّ الطويل، فانطويت على شعور الخوف أكثر، حيث استقبلتني صيحات صاخبة وضحكٌ ساخر لجنودٍ مُتحلّقين أمام الباب كالخنازير، دنوا مني حين لاح الضوء على جسمي يُسمعونني الكثير من السخرية والهزء. دخل من بينهم جنديٌ متين قصير القامة طويل الذقن، له شحمةٌ زائدة أسفل رقبته، عيناه زرقاوان، بشرته بين الحنطيّة والبيضاء، مربّع الشاربين... أراح يده على كتفي يسأل الجند خلفي:

– أهو آخر المحكومين؟

أجاب الجندي مزيحاً فم بندقيته عن ظهري:

– لا بقيت مجموعة أخرى.

– حسناً، خذوه الآن واستعجلوا به قبل المغيب.

رنّ صوتهم الجماعيّ في أذني:

– أمرك سيّدي.

أوقفوني على بساطٍ من الرمل الناعم المرشوش بالحصى، بُني على رأسه جدارٌ أبيض ناصعٍ، وأمر كبيرهم بي حين رفع عصاه الخيزران، ليلقوني مُتمرّغاً بعريّي، ثم انزلقت العصي من السماء تلعق كلّ شبرٍ في جلدي، صراخي لا يجدي شيئاً. فَطنت فقط لخيط الدم الذي تدلّى من حاجبي، وريقي الذي جف من شهقاتي، وحرارة بكائي. رأيت

خيال كاتلين تقف هناك في القريب، في ثيابٍ من الحرير الأبيض الخالص، أغمضت عيني ثم فتحت أخرى فلم أرها.

وهم يضربونني بالخيزران الندي كانت كاتلين خيالاً اضطجع جانبي، تلثمني كي أغيب عن حرارة اللسع الهاوي على عريّي الهزيل. لم أفهم وقع اللثم والجَلْد عليّ لحظتها: لَثْمٌ حذو الجَلْد وجَلْدٌ حذو اللَثم، وغالباً ما يقعان عليّ سويّاً، حتى غبْت ولست أدري أكانت غيبوبتي من شدّة الجَلْد أم من شدّة اللثم.

٣

تمدّدت الظلمة بعد المغيب باعثةً في جلدي بردَ المساء، فصحوت من التصاقه بي، انتفضت كالملسوع، تفقّدت أعضائي وتحسّست عورتي خشية أن يكون هناك ما استوصل مني وأنا شعرة نابتة بين الموت والحياة. همست في قلب الظلام:

كا ا ا تلين...

لم يجب طيفُها لهفةَ صوتي، كابدتُ الوقوف، لكنّ آثار اللسع ما برحت حارّةً تأكل لحمي، نقطُ دمٍ مختلطة بعَرَقي مكان تقلّبي في هذا الجحيم.

وما إن تمكّنت من الوقوف جيداً حتّى بدوت محدودباً كابن المائة؛ عيناي تدوران مع دوارٍ كأنّه يحاول أن يقلب رأسي، لم أستطع التماسك فوقعت مكاني. أضاء أحدهم بكشّافه إلي منادياً خلفه:

- صحا السجين!

فجاء رهطٌ من أقصى السياج البعيد والتفّوا حولي مختلفين أميتٌ أنا أم حيّ؟! دفعني أحدهم بباطن قدمه فتدحرجتُ ولأنفاسي امتدادٌ على الرمل، ثم صحوتُ على صوت سريرٍ من البلاستك الأبيض

يُطرَح جانبي، ليحملني عليه ثلاثةٌ غلاظ الأيدي، عراض الأكتاف، وذهبوا بي. أنزلوا السرير عند باب السجن وصاح بي أحدهم:

– انهض.

وقفتُ بمساعدة الاثنين الآخرين، وحين فتحوا الباب قابلتهم جثّة ميمون وهي تتدلّى من السقف مشنوقاً بالسلك الحلزوني، مائل الرأس، مفتوح الفم يطلّ رأس لسانه من يمين فمه، وأسفل منه الكرسيّ الدائريّ السطح، ذو الأضلاع الثلاثة. أضجعوني في الزاوية المتّسخة وانصرفوا مغلقين الباب كالهاربين. رأيتُ أمامي فراشي الذي تقلّبت فيه ليالي أتصارع مع كلّ ألم ألحقه الجند بي، ملمسه الناعم رغم اتّساخه، ونقشه الواسع رغمً تمزّق بعضه، أعادني إلى كاتلين، وبابها، والفراش الذي ضمّني وإيّاها، لكنّ فراشها عذابٌ لذيذ، وبصوتٍ يقطر مع دم شفتيّ:

– أيّها الفرَاش... كم مضى وأنت تشمّ جلدي؟

لعقتُ دم شفتيّ وأكملت:

– وأنت أيّها الغطاء... لا تتصالح مع رِجلي وتسترهما حين لا أنام إلا مُبعثر الجراح...؟

جثّة ميمون تدور تحت السقف المتّسخ، أضاء النور العابر خلال النافذة نصف وجهه اليابس، وعيناه تنظران إليّ بعتابٍ طويل. فتحت شفتي اليابستين المتجرّحتين عن سؤالٍ أخير:

– أبدأ الموت من أطرافك حين استعجلته؟

دارت الجثّة عكس مدارها لينصرف وجهه عن شحيح النور. نظرت إلى الرفاق، كانوا نائمين نومةً أثقلَ من الإغماء.

لعَق سمعي صرير مفاصل الباب وكأنّه موسيقى جنائزيّة: أربعةٌ من الممرضين، قصيرو القامات، يرتدون قمصاناً خضراء داكنة، من تحتها بناطيل بيضاء طويلة، ومُكمّمون بكمّاماتٍ بيضاء وقُفّازاتٍ سوداء، يجرّون خلفهم سريراً رفيعاً على عجلاتٍ سوداء من المطاط. وضعوا سُلّماً قصيراً ذا درجاتٍ صغيرة، وصعد أولهم وأخذ عيّنةً من لعاب الجثّة ودمها الجامدين، المنزلقين من فمه على رقبته، ثم أخرج من جيبه الأمامي كاميرا صغيرة والتقط أكثر من صورة، ثم أعطاها لأحدهم واستلّ من جيب بنطاله سكيناً صغيرة ذات مقبضٍ أخضر وقطع السلك من أصله، فاستقبل أصحابه الجثة حتى لا تقع، مدّدوها على جنبها الأيمن وغطّوها بغطاءٍ رمادي ومضوا مغلقين الباب بهدوء.

تساءلتُ بعدها:

– لو متّ هنا بالتأكيد أنني لن أجد من يواري جثّتي أو حتّى ينوح عليها!...

دبّ الكسل في عينَي، وما كدت أنام متّكئاً على الحائط الخشن حتى فزعت من نومي على أثر رشق الماء البارد عليّ من وعاءٍ ملأه الحارس ليوقظنا قبل الفجر، لتناول شيءٍ من الطعام. رأيت الرفاق وهم في قمّة فزعهم من برودة الماء في هذا الصقيع. شتمَنا الحارس ولعابه يسبق شتائمه:

– كُلوا أيّتها الجيَف.

وانصرف مغلقاً الباب بشدّة حتى دوّى صوت انغلاقه في الممرّ وبدّد هدأة الليل.

سُفرةٌ قصيرة عليها صحنٌ دائريٌّ فيه شرائح مستطيلة من الخبز المعجون من الطحين الأسمر، أُريقت عليه خطوطٌ طويلة من العسل، وصُفت حوله أكوابٌ خشبية مُعبّأة بالشاي، وقربة ماء سوداء طويلة العنق، وضعت في الزاوية، ليس لنا إلا أن نأكل ونُريح بطوننا من وخز الجوع الحاد، رغم النتن والرائحة التي تخنق المكان.

التففنا على السفرة كالجالسين حول فقيهٍ ربّانيّ، لأول مرّة نأكل دون أن نتكلّم أو نشتم المكان والحرّاس والأنظمة كالعادة، كان بديله أننا أمضينا هذه السفرة نلعن في دواخلنا كلّ من تسبّب في شقائنا.

الكُرّاسةُ الثالثة

أشباحٌ تُطلُّ من شُقُوق السُّجون

١

مراكب الليل تسبح في ظلامٍ باردٍ طويل، وصوتُ مغفور أشبهُ بغناءٍ يُذيب العتمة، وحين انسلخ الجلد الرقيق من الفجر رفعنا رؤوسنا الحليقة نحو النافذة لرؤية أولى بشائر النور الضئيل: وميضٌ بالكاد يقفز إلى المكان.

وما إن أسفرت الشمس حتّى قاموا بصفنا يفصل بين كلّ واحدٍ منّا والآخر مترٌ أو أقل، نسبح في خجلٍ عميق من عُرينا الذي لم تُستَر منه سوى عوراتنا بأكفّنا المتسلّخة، وبُصاق الجند الواقع على جلودنا النتنة أكّد إيماننا بأنّنا تَدَرّجنا في بهيميّةٍ لا توصف. كوّموا ملابسنا

قرب مرحاض السجن ووضعوا فوقها حجراً صغيراً.

ألبسونا ملابس من الخيش المحاك يدويّاً، وجعلونا ننتعل أحذيةً من الجلد الخشن الحار. كان مغفور أسوأنا حظاً، حيث نزعوا خاتم زواجه من إصبعه، وبذلك يكون قد فقد آخر تذكارٍ للذّته، حملوه بعدها وهو يحاول دفعهم عنه:

– إلى أين تأخذونني؟

لكنهم كانوا أقوى من أن يدفعهم بعيداً. وصلوا به إلى برميلٍ من الخشب الثقيل، المطليّ بدهانٍ بنيٍّ فاتح، والمبروز بحديدٍ دقيقٍ صلب، طوله يقارب المتر ونصف المتر، ثمّ غمروه في ماءٍ كالثلج أو أشدّ، لدرجة أنّ البرودة ملأت فمه وأتلفت رئتيه، وكسمكةٍ مطاردة يدور في البرميل ويصرخ بصوتٍ متشنّج:

– البـ ر ر ر د د.

أُبصر ببصرٍ باهتٍ في عُريّه وهو يدور كلّ لحظة عكس اتجاهه السابق، بينما تميل حركته إلى البطء أكثر، فخُيّل لي أنّ عروقه استحالت مكعّباتٍ من الثلج والبَرَد. أوقفونا أمام البرميل، الذي غدا رطباً من برودة الماء وانقلب لون لحائه إلى البنيّ الداكن، وطلبوا منّا أن نغرقه بأيدينا، دفعونا برؤوس البنادق نحوه فأحطنا به، وفي رفضٍ كبير لم نرفع أيدينا، فبادروا بركلنا والبصق على رقابنا لدرجة أننا دفعنا به إلى قاع البرميل، وصراخ الجند فوق رؤوسنا كالحجارة:

– اثبتو و و وا.

كانت يداي تضغطان على كتفه وعنقه من جهة اليسار، نبضه توقّف، هذا ما أنبأتني به يدي التي تدوس على أوردة عنقه المتّصلة

بترقوته، برودة الماء صلَبَت ذراعي لكن ضغط فوّهات البنادق على ظهري أنساني شدّة البرودة، توقّف عن الحركة، فقاقيع أنفاسه تدور على السطح كاللؤلؤ، إنها آخر ثمالة من حياته ترتاح على البرودة، ننظر إليها وننظر إلى بعضنا وكأنّ كلٌّ منّا يتهم الآخر بجريرة القتل الجماعيّة.

أظنهم قَصدوا من كلّ هذا إعلامنا أنّ لكلٍّ منّا طريقة موت خاصة وضعوها مسبقاً، بحيث يكون لكلٍّ منّا نصيبٌ في موت أيٍّ منّا، وهذا ما نراه كلّ يوم أو يومين، عدا تلك الليلة الشاذّة عن القتل التي أسلم فيها ميمون روحه.

أعادونا عندما أكل الظلام المكان، وفي أنفسنا شعورٌ ثقيلٌ بالجريمة، وحين انتصف الليل اقترب وقع كعوبهم على أرضيّة الممر، ليبعث برائحة الموت في ضيق المكان. صحونا على ذلك مذ بدا الوقع يقترب، ورائحة الحديد الصدئ تفوح من مفاصل الباب، وضحكاتهم الماكرة تسبقهم إلينا:

- انهض.

قالوا لي، ولست أعلم أيّهم الذي أمرني. التفّوا حولي ككلاب ظفرت بصيدٍ سمين، انتبهت لخلاّعةٍ تلمع معلّقةً على جيب أحدهم، نحاسيّةٍ ذاتِ رأس حادٍّ ذي قوسٍ مفصولٍ من المنتصف. نظرت إليهم برجاءٍ متسائلاً عمَّ يريدون مني وهذه الخلاّعة؟!

كان الجواب عن تساؤلي صادماً قبل أن يقطر نور الفجر، حيث اقتلعوا أسناني الأربعة الأماميّة، تاركين إياي أتمرّغ في دم فمي وأتطوّى في القاع كفأرٍ اصطيد بالسمّ.

– لكن أين أسناني؟!

ألقوا بها من النافذة، هذا ما أخبرني به رفاقي هنا، رفاق العذاب والوحشيّة، وآهٍ لتلك الأسنان التي تعشقها كاتلين كلّما ابتسمت لها وكلّما ألقمتني لقمةً من يدها وهي تقول هائمةً:

– أسنانك جميلة فاتنة!

وها هي الأسنان التي عشقتها كاتلين تُلقى بعيداً عن فكٍّ معشوقها، استحلتُ عجوزاً بلثّةٍ مقلوعة الأسنان داكنة اللون.

٢

محا الفجر آخر أسرار الليل، واندلق آخر أملٍ في الخروج من هذا المكان. تحسّستُ ذقني الطويلة، حيث بدوت كراهبٍ طاعنٍ في سنينه الجوفاء، شاربي غَطّى شفتي السمراء، وَوَخْزُ شعر أذنَيّ يزعجني كثيراً. نَزَعَ بصري خيال كاتلين عند اصطدام الضوء بالظلام، قفزت من مكاني ملدوغاً من الذهول، دفعت بلحم وجهي في السياج، مستفيداً من الكرسي ذي القوائم الثلاث، الذي تواطأ مع ميمون في الخلاص من الدنيا والرحيل منها بسرعة، وجهي تعلّق بين حديدتَي السياج، أحتاج شيئاً من عبق جلد كاتلين، كانت تنظر إليَّ بحبٍّ وأسىً معاً... زمنٌ طال يا كاتلين لم أذق الحب مذ أودعوني هنا!

– كاتلين...

خرجتْ من يباس شفتَي كنداءٍ ظامئ، ألم لثّتي ودم فمي امتزجا بحرارة اسمها حين فرّ من لساني، لقد أنستني هذه اللحظة كُلّ وجع السجن ولهيب أيامه، وكأنّني أراها تتأملني بعينين باكيتين. وقفتْ غصّةٌ في بلعومي، غصّةٌ أشبه بكرةٍ حديديّة، أريد أن أعيد النداء، تأخذها سحب الظلام بعيداً بعيداً، ضغطتُ بجبهتي على السياج

وبلغةٍ لا تُفهم جرّاء اقتلاع أسناني صائحاً:

– لا أستحق الحياة إلا بك يا كاتلين... لا أستحق الحياة إلا بك...

يقف الرفاق خلفي ظانيّن أنني أُصبت في عقلي جرّاء العذاب الذي أذاقوني إياه.

٣

فكّت الظُلمة ضفيرتها الطويلة على الأرض، واطمأنّ كلّ حيٍّ عليها، وسكنتْ أصوات الآمرين، وهدأتْ أنفاس المتعبين. أفقنا نحن العشرة الباقون من ثلاثة عشر: إلياس، ونضال، ومعن، وعابد، وبنيامين، وكريم، وعبد السلام، وسعد الدين، وحيّان، وأنا... حيث قضى اثنان حتفهما بالطريقة المحدّدة سلفاً، وواحدٌ أتى كالمفاجأة لنا ولهم.

دنت رؤوسنا من بعضها، وبأصواتٍ أشبه بأصوات صغار الطير الجائعة، قال بنيامين:

– سيطول انتظار الموت.

أضاف كريم:

– الموت يعاندنا.

أضاف سعد الدين وهو يشير بسبّابته اليمنى المرتخية:

– ألا ترونه يقف هناك!

بعد نصف ساعة تقريباً أدرجوا من تحت الباب صفيحة متوسطة بيضاويّة، صُفّت عليها قِطَع السمك المقليّ، المرشوشة بقليلٍ من بهار

الطعام، وأُدرجت خلفها عشرة أكواب زجاجيّة طويلة من الحليب البقريّ الثقيل.

تلفّتنا نحو بعضنا، ثمّ نهضت وقرّبت الطعام وصففت الأكواب، ابتسموا لي ابتسامةً حزينة، مددت يدي مُشجّعاً إياهم على الأكل، لكنهم نظروا إليّ وكأنهم أُتخموا شبعاً: لقد أغلق العذاب هنا كلّ شهوات الأكل والشرب، إن لم يكن قد أغلق شهوة الحياة كلها.

ينظرون إليّ بأعين احولّت من ضغط الألم، يراقبون يدي وهي تُلقي باللقمة تلو الأخرى، صوت المضغ في فمي حرّك شهيتهم، فاقتربوا وهم يرفعون عن أذرع سوداء من وطأة الحَرْق والرض، ليمدّوا أكفّاً مُتقشرةً ذابلة، آخذين اللُقم بأصابع مرتجفةٍ يابسة، مُدرجين كلّ لقمة ببطء.

بعد منتصف الليل انقلب المكان من ضحكنا وسخريتنا التي قاربت الجنون إلاّ قليلاً، حيث لم يبقَ جنديٌّ أو حارسٌ لم نجعله سخريةً على ألسنتنا، لدرجة أن جلودنا كانت تضخ العرق من فرط الضحك من التشبيهات الساخرة بهم. بعدها وضعت الصفيحة من تحت الباب ودحرجت الأكواب العشرة خلفها.

وحين نزلت دمعة الفجر على خدّ السماء، صحونا على وقع أقدامهم المسرعة عبر الممرّ المظلم الرطب، نهضنا في شبه استعداد، دخل ثلاثة في ملابس سوداء ضيّقة، لها أحزمة من المطّاط النحيل، ووجوهٌ مُقنّعة، متوسّطو الطول، عريضو الأكتاف، كبيرو الرؤوس، أعينهم من خلف الأقنعة أشبه بنذير الهلاك، ينتعلون أحذيةً جلديّةً طويلة حتّى نصف الساق. لم ينطق أيُّهم بكلمة، وقفوا كالمحتارين

فينا، قال أوسطهم وهو يُحرّك بصره فيما بيننا:

– خذوه.

وأشار إلى إلياس بسبّابته اليمنى المغطاة بقفّازٍ أسود، فالتقطوه ومضوا به وهو يقاوم ويصرخ:

– ما تريدون بي؟... ما تريدون بي؟...

أدخلوه غرفةً طولها متر ونصف المتر وعرضها متر، مسدودةٌ نافذتها بخرسانة ثقيلة، يتدلّى من سقفها حبلٌ يتفرّع قبل بلوغه الأرض إلى حبلين في رأسيهما قيدين، أوثقوه ونزعوا عنه ملابسه، وباعدوا بين ساقيه بخشبةٍ صفراء طولها أكثر من المتر. دخل خلفهم جنديٌّ نحيلٌ قصير القامة، له شاربٌ قصير وذقنٌ مربّعة، يغطّي يده اليمنى بغطاءٍ أخضر بلاستيكيّ، يتبعه اثنان من الممرضين الأصحاء الممتلئين كأنهما توأمين: وجهاهما دائريان، وأعينهما غائرة، وأنفاهما كأنهما ليمونتان، يلبسان ملابس خاصة بمستشفيات السجون. اقترب الجنديّ من إلياس هازئاً:

– هل تحتاج ذكورتك بعد اليوم؟

أخفض إلياس رأسه علامةً عن معرفته بالمصير المنتظر له، ودوّت صرخته في الممرّ لدرجة أننا كدنا نُصعق من هولها. وبعد وقت أحضروه في لفائف بيضاء عليها آثار دماء ذكورته، وأضجعوه في الزاوية القريبة من المرحاض، أنينه المتذبذب بين الارتفاع والانخفاض يشجّ العظام من حرارته، وهو يمدّ يديه إلى ما بين فخذيه لإيقاف الدم النافر. التفتوا إلينا وأشار إليّ كبيرهم:

– خذوه.

التقطوني من عضدَيّ بأصابع حديديّة، ولم أبد أيَّ مقاومة، فما عُدت أنتظر هنا غير العذاب. ذهبوا بي نحو غرفة ليست ببعيدة من التي أدخلوا إلياس إليها وأذاقوه الشر، وصلوا بي إلى حمّام ضَيّقٍ جداً بالكاد يقضي الرجل حاجته فيه واقفاً، طوله يقارب المتر وعرضه أقل من سبعين سنتيمتراً، بلاطه من الوطنيّ الرخيص، وجدرانه من الأسمنت المدهون بالطلاء الأبيض، دُقّت في الجدارين المتقابلين حديدتان في كلٍّ منهما حلقةٌ دائريّة صدئة، على الجدار أسفل منها بُقع دم وخيوطٌ مخاطيّة وقطعُ جلدٍ منسلخ. ركلني أحدهم على مؤخرتي لأصطدم بالجدار أمامي، فانتبهت لقدمي حين غاصت في المرحاض التقليدي المكسور، أخرجتها لأجدها مُلطّخةً بالقاذورات والغائط. شرع اثنان منهما بتمزيق قميصي وإيلاج يدَيَّ في الحلقات الحديديّة، جاعلين ظهري للباب.

أبطأت مقيَّداً لا أعلم ما يريدون صنعه بي، فما كنت إلا أن التفتُّ لألمح عصاً من القصب الطويل، أعطوها للجلاد العاري الجسم إلاّ عورته، فراح يضرب بها ظهري حتى نَفَرَ دمي، جَلْدة حذو الجَلْدة، وكلّ أثرٍ في جلدي يَنِزّ منه دمي، وطعم الألم أشدُّ من كَيِّ النار.

عشر دقائق أظنها مرّت مذ شرع القصب يأكل من ظهري، رأيت خيال كاتلين وكانت تقف أمامي، مطوّقةً عنقي بذراعيها، وتهمس بشفتيها الرطبتين:

– أضاعوك!

أبصرتُها ببصرٍ جافٍّ قصير، فما كنت أفهم لثمها لوجهي الملوّث بالدم والجروح: كاتلين تجلد وجهي بلثم شفتيها المندفعتين، وعُودُ

القصب الطويل يهوي به الجلاد على عظام كتفي وسلسلة ظهري، لَثْمٌ وَجَلْد، لَثْمٌ وَجَلْد... فغرقت في غيبوبةٍ طويلة، لا أدري أكانت من شدّة اللثم أم من شدّة الجَلْد، وما صحوت إلا وهم يضجعونني بجانب إلياس، قرب المرحاض، فتحت أجفاني ورائحة لُعاب كاتلين يفوح في أنفي، آمنت بآثار لثمها على جلد وجهي الموحش.

وما كانت الشمس ترسل خيوط الذهب نحو النافذة إلا وأنا قطعة لحم غارقة في دمٍ داكن، وإلياس قد غادرت روحه من أثر النزيف النافرِ من عورته، وصراخ الرفاق يصعد إلى السماء من لهيب السياط الواردة من الجهات الأربع.

الكُرّاسةُ الرابعة

أَعينٌ معصوبةٌ بالجمر

١

نهارٌ يرسل رماح ضوئه لتنشب في منتصف السقف والحائط المقابل، نحن أسفل السقف كقططٍ مريضة أنزلها أطفال الحي وتقاذفوها بالأرجل والعصيّ، ورموا بها من فوق الجدران وتركوها بعد أن قطّعوا أذيالها... يصدر من صدر واحدنا أنينٌ يُشعل الرهبة ويسعّرها في قلب سامعها، فلم يغيّر النهار شيئاً في نفوسنا، ولم يمحُ سطراً واحداً من الهوان المدوّن علينا.

وقع أقدامٍ كثيرة تتداخل بين سرعتها وبطئها، وهمسٌ ثقيلٌ يسقط من أفواههم، فتحوا الباب، وهمسهم لم ينقطع، كنا مضطجعين، نعدُّ

خيباتنا ونزن بها حياتنا التي بدت أقل من الرخيصة، كانوا خمسةً طوالاً حاسري الرؤوس، في أكفّهم أوراقٌ وملفّاتٌ ملوّنة، ركلونا وبصقوا علينا وكلّ واحدٍ منهم يأمرنا بعنف:

– انهض... انهض.

غدونا كديكة منتوفة الريش ممّا على هيئاتنا من عذاب. أوقفونا على الحائط وجوهنا نحوهم، أخرج اثنان كاميرتين والتقطا لنا صوراً عديدة: الوجه، الخد الأيمن، الخد الأيسر... ثم غادروا ليعود همسهم ثقيلاً في أفواههم.

وبعد وقت بدأوا في أخذ أقوالنا واعترافاتنا، كلّ واحدٍ على حدة. أتى جنديٌّ بدينٌ شديدُ البياض، ومضى بي نحو غرفة صغيرة مستطيلة، عرضها يقارب المترين وطولها الثلاثة أمتار، طُليت جدرانها بالرمادي الفاتح، في المنتصف طاولة خشبيّة مستطيلة أيضاً، يهبط عليها من السقف مصباحٌ بيضاويّ، مُودَعٌ في حامٍ حديديٍّ سخيف، كُرسيّان خشبيّان بلا ظهر، قاعدتهما دائريّتان، تقفان على أربعة أرجل مكعبة طويلة، يجلس على الكرسي المقابل عسكريٌّ برتبة نقيب، أسمر البشرة، مفلطح الأنف، صغير العينين، غزير الشعر، يشبك أصابع يديه وبين ذراعيه علبة سجائر وفوقها علبة كبريت صغيرة:

– اجلس.

قالها دون أن ينظر إليّ. أرحتُ جسدي المريض وتركت ذراعَيّ ويدَيّ ترتاح على الطاولة. أخذ ينظر إليّ ويده اليسرى تقلّب كومة الأوراق المرصوصة، قَلَبها على ظهرها ومضى يلقي بها الواحدة

فوق الأخرى وهو يسألني رافعاً يده اليسرى، فانتبهت لخاتم زواجه في بنصره:

– لماذا سمّوك برهان؟

أغمضت أجفاني بشدة وفتحتهما مجيباً:

– أسمتني أمي باسمي هذا تيمّناً بقارئ القرآن في حيّنا آنذاك.

أحاط الجند بي حتّى أمرهم بمغادرة المكتب، ثم رفع رأسه نحوي:

– أتعلم لمَ أحضروك إلى هنا؟

– لا

مُشيراً بيده:

– إطلاقاً إطلاقاً؟

– إطلاقاً يا سيدي... إطلاقاً.

أشعل عوداً وكوى به ذيل سيجارته واستمرّ ينظر في الأوراق لدقائق ثم قال:

– التهمة بتآمرك ضد أمن الدولة ثابتة بأدلّة قطعية لا حصر لها، بالإضافة إلى رفاقك أيضاً.

امتصّ نَفَساً طويلاً من سيجارته وأكمل:

– قل لي... لمَ فعلتم ذلك؟

وبفم أدرد لا يُخرج حروف السين والصاد جيداً بسبب لثّتي قلتُ وشيءٌ من اللعاب يتطاير على ذقني وظهر الطاولة:

– صدقني هناك اشتباه لا أكثر، صحيح أننا كنّا نتواجد بشكل مستمر في المنطقة المخطّط تنفيذ المؤامرة فيها، لكننا لم ننوِ ولا

حتى نعلم بما يدور حولنا...

قاطعني:

- ولكنكم قاومتم مع من قاوم وقتها...

رفعت يدي إلى صدري:

- صدقني لسنا أكثر من بسطاء فقراء، أتت بنا الصدفة مع من رسموا ما حصل دون أن نكون على بيّنة مما رأينا.

كان يستمع إلى أقوالي وهو يدير سيجارته بين أصابعه وبصره على يدي وذراعي، ثم قاطعني سائلاً بنبرةٍ غاضبة:

- هل تلقّيتم رشوة لقاء هذا؟

- أبداً.

- أو عرضاً مغرياً خارج المكان؟

- أبداً.

- أو وُعِدتم بما يكفيكم الفقر والعَوَز؟

- أبداً، أبداً.

هدأ صوته بعدها وسأل براحة:

- لم تخبرني...

- عن ماذا؟!

- ولاؤك نقيٌّ للأسياد؟

وَسّعت بين ذراعي وأجبت بتمتمة:

- بالتأكيد بالتأكيد.

دخل علينا عاملٌ قصير أسمر من هيئته عرفت أنه آسيويّ الأصل، يحمل بين أصابعه صحناً زجاجيّاً دائريّاً صغيراً، عليه فنجان طويل

زجاجيّ من الأعلى وخزفيّ من الأسفل، نطّت منه رائحة الشاي الأحمر النقي، وضعه أمام النقيب وعيناي تلاحقان دخانه الذي جرّ لعابي وشهيّتي. مرّ زمنٌ لم أستمتع فيه بفنجان القهوة أو الشاي. قَلَب الأوراق على ظهرها وراح يجرّ عليها رأس قلمه الأزرق، يكتب لحظات ثم يلقي بالقلم ويرتشف من الشاي رشفةً طويلة دون أن يرفع عينيه إلى وجهي. كاد لساني أن يتدلى على فكّي لولا معاندتي لنفسي، أطبقت فمي تاركاً لعابي ينحدر إلى معدتي الجائعة، رائحة الشاي تؤلم قلبي، جذبت ذكريات الأنس في الليالي الحمراء التي كنت ألتقي فيها كاتلين ونرشف الشاي حتى تستوي أفكارنا في رؤوسنا.

لقد انفرش الصمت حتى صرت أسمع بوضوح ركض قلمه على خشونة الورق وهو يدوّن ملاحظاته حول ما سمعه مني. كان أكثر ما يستفزني هو طريقة ارتشافه الشاي التي تعلّقت بها عيناي حتى أنهى فنجانه ولم ينظر إليّ أو حتى يسألني.

بعد دقائق أخذ يرعف في منديلٍ قماشيٍّ طويل، وصوت تحقيقٍ في الغرفة التي جوارنا يعلو ويخفت، امتدّ منها صوت صراخ المحقّق وبكاء المتهم، هذا خلاف آخرين يُضربون في غرف التحقيق الخلفيّة، وتوسّلاتهم تتسلّق الأسقف من هول ما يرون. أيقنتُ أن ذلك في طريقه إليّ، فهذا الصمت الذي يحيط بالنقيب لم يعد يريحني، فقد اتّضح لي ممّا سمعته من غرف التحقيق المجاورة أنه إيقاعٌ مرتّب يمرّ على كل من يؤتى به لأخذ أقواله.

توقّف صرير قلمه، وأغلقه وقذفه قرب فنجانه، ودفع إليّ وسادة حبر مستطيلة، آمراً:

– ابصم بإبهامك القذر على كل الأوراق التي أمامك.

نظرتُ في باطن إبهامي وضغطت في الحبر ومضيت أبصم حتى انتهت الأوراق. أمسك إبهامي بيمينه وقال:

– بقيت ورقة لم تبصمها.

ودفع بإبهامي نحو أنفي ليطبع على أرنبة أنفي وهو يضحك ويضحك ويضحك، ثم أمر الجندي الواقف خلفي:

– خذوه.

أخرجوني من الغرفة بعد أن احترق إبهامي من كثرة ما غاص في وسادة الحبر الأسود، ويُضغط به على ورقة الاعترافات التي كانت مُدوّنة سلفاً، ومُعدّة الأسئلة قبل مجيئي لأخذ أقوالي، كذلك فعلوا بالرفاق حسب ما رووه لي بأنفسهم.

٢

ظلماتٌ تتكوّم على ظلماتٍ أشدّ، وعذابٌ يُسلمنا لعذاب أكبر... نقلونا إلى زنزانةٍ ذات جدرانٍ خمسة، لأول مرّة أرى في حياتي غرفةً بأكثر من أربعة جدران، كل جدار أعتم من الآخر، عدا أحدها، وكان منطفئ اللون عليه كتابات صغيرة من شكلها يتّضح أن سجيناً سابقاً سطّرها، في حوافه السفلى صدوع من آثار الماء المتسرّب من سوء السباكة وعشوائية العمل في تسليك المكان، ورائحة شديدة الفوحان تأكل المكان أكلاً، بتركيزها، كان مصدرها غائط مختلط على قطع من النفايات الصغيرة، كُنست إلى زاوية بين جدارين في منتصف الزنزانة، وضع فيها مرحاض أقلّ ما يقال عنه إنه شديد الاتساخ. دفعونا ركلاً بالأقدام وضرباً بالأيدي، وقبل أن ألج المكان التقطني أحدهم من ملابسي وجرّني نحوه قائلاً بلهجةٍ شديدة التهديد:

- إن علا صوتكم أو دنا أحدكم من الممرّ بترت أصابعك.

بلعتُ لعابي الثقيل وهززت رأسي بالعلم فأطلقني ودخلت مصحوباً بالركل والصفع. اخترت الجلوس قرب الباب، بعد أن أخذ كلّ رفاقي أماكنهم عشوائيّاً، وكغربان أحناها العجز وأثقلتها

الكهولة، غدا رأس كلّ واحدٍ منّا كالمدقوق من قفاه، ووجهه ساقط الملامح على الأرض:

– ستشبع النسور من بطونكم!

قلتُ ذلك وأنا أحكّ ركبتي وأحرّك رأسي لأعلى. لم يجبني أحد سوى أنّنا تصنمنا ويَبِست مفاصلنا. نظرت إلى أصابعي فبدت وكأنّها مقروضة. لا شيء يمضي سريعاً في هذا المكان، حتى حركات أعيننا وَرَمْش أهدابنا غدت بطيئة من كثافة الظلام واشتداد الرائحة الكريهة.

صمتٌ يضعنا جميعاً في بلعومه ويمضي يُدخِلُ المكان شبراً شبراً حتى لا نكاد نسمع سوى قطرات الماء التي تَخرّ من السقف أو خطوات الجند البطيئة في الممرّ. أُدخل علينا صحنٌ بيضاويّ متوسط الحجم، فيه أرز مسلوق ولبنٌ مراقٌ على حوافّه وأوسطه، تحلّقنا حوله كالمسحورين ورحنا نأكل دون أن يُزيح أحدنا وجهه عن الصحن أو ينظر جانبه، ولفكّ كلٍّ منّا صوتُ مضغٍ سريع وطريقةُ بلعٍ مرتبكة، وكأن الطعام سيفرّ منّا. وفيما نحن فيّ غمرة الأكل والإحساس بمقاومة الجوع، دخل ثلاثةٌ من الجند، يتقدم أحدهم ممسكاً بكيس خيش كبير، فأنزله وبقي ممسكاً بفمه وهو يتهامس بين مرافقيه. توقّفنا عن الأكل وشخصنا ننظر في ما ينوون بنا، الكيس تدفعه من داخله كائنات كثيرة كما يظهر من طريقة الحركة والدفع، تهامسوا قليلاً وكأنّ إشارة أمرٍ أُلقيت على الأول فأطلق فم الكيس من يده ونكّسه فاندلق سيلٌ من الثعابين تكاد لا تحصى لكثرتها، أحجام لا حدود لها، وألوان لا أسماء لها، انفلقت صرخة على أفواهنا وانتفضنا محشورين في ركنٍ من المكان، أُغلق الباب وأُحكم من

الأسفل بقطعة حديدة كي لا يعبرها ثعبان.

ثعابين منتفخة، وأخرى بالكاد تزحف وتنطوي على أرضيّةٍ تشعر براحةٍ عليها، وأخرى تحاذي الجدران ولا تحيد عنها قدر سنتمترٍ واحدٍ، وأخرى كأنها تلاعب الأخريات وسط المكان وقرب المرحاض المقلوع، لسنا على علم بخطرها أهي سامّة أم جيء بها لإرعابنا ودفع الخوف في قلوبنا أكثر. تثاقلت الساعات في المضيّ، وانقلبت الثواني إلى ساعات، الرعب لا يسعه المكان ولا تطيقه القلوب المثقوبة به مذ جيء بنا إلى هنا. لم يتحرّش بنا ثعبانٌ واحد ولا حتى اتجه نحونا أيّها.

جاءت الساعة التي دقّ النوم رؤوسنا ونحن ما برحنا واقفين من ساعات خشية اللدغ أو دفق السمّ، قال حيان بذلّة:

– ألم أقلٍ لكم ستشبع النسور من بطونكم!

أجبته بفكٍّ له طقطقة:

– قد تكون النسور وقد تكون الكلاب أو الذئاب.

وافق على ذلك ثعبانٌ بلون التراب، عيناه شديدتا السواد، دار على ساق كريم وانحدر عائداً ولسانه يتعقّب رائحةً ما. انطلقت رعشة خوف شديدة في عظامنا، والعرق يتصبّب من جلودنا ويلمع كالزيت من حرارته، وطفحت جلودنا ببقعٍ بيضاء وزرقاء، قَطَع تركيزنا ضحك الجند من خلف القضبان وهم يقذفوننا بالنكات الساخرة والكلمات السافلة، تصاعد ضحكهم وتجرأوا على قذفنا بعلب الماء الفارغة وقشور المكسّرات وأغطية المياه الغازيّة، حتى تساقطنا من جور التعب، قاموا بعدها بلمّ الثعابين وتركنا للرعب

المستيقظ في قلوبنا على الدوام.

اضطجعنا للنوم دون الشعور بيديه وهي تُسدلُ جفوننا السوداء. صحوتُ على قرقعةٍ عند المرحاض وصوت أنّات بطيئة وزفرات واسعة الخروج من صدر صاحبها، رفعتُ رأسي وألقيت بالبصر نحو الصوت، كان حيّان كاشفاً عن عورته رافعاً ثيابه، مستغرقاً في قضاء حاجته، مستخدماً أشدّ المراحيض وباءً وأكثرها وساخةً في الدنيا. أرحتُ رأسي ووجهي للجدار، كما كنت، لتنزلق دمعةٌ حارّة من تحت جفني، عابرةً جلد وجهي، منتهيةً على ظهر كفي اليمنى.

انقلبت على جنبي الآخر ليصبح وجهي للباب ذي القضبان الغليظة السوداء، وظلّ الجندي الذي رسمه نور المصباح المعلّق في الممرّ وهو يذهب ويجيء على كلّ باب من الزنازين، وطقطقة زناد وقّادة سجائره من ضغط إبهامه بسرعة ليشعل سيجارته؛ كان صمتاً رهيباً يستطيع الواحد سماع الدبيب والهمس فيه. عاد النوم واستلب عيني فذهبت في نومٍ تدريجيٍّ ثقيل، دوائر من الوحشة داخل دائرة أكبر، فقدنا الإحساس بكل شيء: الأمان؛ الموت؛ العذاب... وحتى الجلاّد لم يعد يُشعرنا بقسوته كما كان.

صحوتُ مرّةً أخرى على أنينٍ محتقنٍ في صدر صاحبه، بطيءٍ طويلٍ يصعد من حنجرةٍ ضيّقة. أدرتُ وجهي في النائمين، كما هم منطرحين من قسوة العذاب، تباطأ الأنين وصحبته رائحة دم، أدرتُ رأسي تجاه المرحاض فإذا حيّان ينزف من وريده الأيسر وفي قبضة يمينه آلةٌ حادّة صدئه، فزعت نحوه منادياً:

– ما بك؟ من فعل بك هذا؟

لم يجب بحرف، عيناه تدوران وشفتاه تُتمتمان بما لا يُفهم، بقيت رأسه مائلة على صدره وأومأ بالآلة في يده. أيقنتُ أنه ينوي الانتحار مذ جيء بنا، لكن الوسيلة لم تكن جاهزة لفعل ذلك، أخذتُ الآلة من يده فإذا هي قطعة الحديد الحادّة التي تُسقط بين دافع الماء وسلك السحب، كان قد اقتلعها ليُريق دمه بيده ويُريح نفسه المعذبة وجسده المحروق.

خَفَتَ صوته تدريجيّاً ومال جسده أكثر نحو الجدار وهو على حالته: مكشوف العورة، يقطر دمٌ قانٍ من منخره، ويَسقط لعابٌ لزجٌ ثقيلٌ من طرف فمه.

الكُرّاسةُ الخامسة

غربانٌ تنقر العَتَمَات

١

ما كان لهذا العذاب آخر ولا تَعَجّلت له نهاية، أو كسدت له وسيلة أنزلها على رؤوسنا، عدا وسيلة كانت من أنشط وأسرع وأدهى اعتباراته، ألا وهي تمني الموت، هذا أكثر ما أشعر به، وأفتك ما بروحي، وكأنهم قرأوا ذلك من عينيّ وأجمعوا أمرهم على أن لا يكون لي ذلك وأن أبقى أتمناه ولا يجيء.

مالت جثّة حيّان حتى وقعت متعلّقةً جانب المرحاض، انكشفت عورته أكثر، ساعات مضت ولم يستيقظ أحد، نائمون أو مَيّتون كلاهما لا يغيّران من الأمر شيئاً، رائحة عفونة فزّت من الجثّة خالطت

ما قبلها من روائح، استيقظ عليها الرفاق، ليُفاجَأوا به يابساً بين الحائط والمرحاض، تجادلوا بينهم مستفهمين وانتهوا بإجابة اللا علم بما يجري لهم. أمسكتُ بالقضبان وضغطت لحم وجهي بينها منادياً:

– الموت يحطبنا واحداً واحداً، أما جئتم لحمل ما سقط من الحطب؟

ما كان إلا وقع أقدام تقترب وصلصلة مفاتيح معها:

– ماذا هناك؟

قالها وهو يزيح يدَي عن القضبان ودفعني من صدري بكعب سوطه، أشرت بيدي نحو المرحاض والجثّة اليابسة، فتح الباب وصفعني مؤنّباً:

– أخبرناكم بعدم الوقوف قرب الممرّ... افترش الأرض كالكلب.

اقتلعوا المرحاض من أصله وسحبوا الجثّة وأدخلوها في كيس بلاستيكيّ أرزق يشبه ما تستخدمه المستشفيات وغرف العمليات من غيارات، ثمّ ذهبوا مغلقين الباب بقوّة ورحنا نتلفّت في بعضنا كطيورٍ حُرمت الطيران بقصّ أجنحتها. عاد الصمت يشتدّ ورائحة العفونة والمرض تتكاثف في المكان.

* * * *

وكسكارى، أحسّوا بنصف صحو أو بنطفةٍ من الحياة اندلقت على أرواحهم، أخذنا ننظر في أعين بعضنا غير مصدّقين أحُلمٌ هو أم حقيقة، أعينٌ مريضة باليأس، غائرةٌ في جماجم ينضغط داخلها

دويّ، لا هو محطّمها ولا بمنزاحٍ عنها، وجوهٌ نالت من العتمات ما لم تنله من السياط والأذى.

السطور المحفورة على الحائط ظلّت محطّة نراقبها حتى بَدَت لنا لوحة المكان وزينته. نهض عبد السلام يتعثر في قدميه المتخالفتين في خطواتهما، دفع وجهه بين القضبان وصاح صيحةً سرت في صلابة الأسقف ورطوبة الممرّ، لم يجبه أحد، صوت شهيقه وزفيره كجملٍ ذبيح للتو، فطن لصدعٍ في الحائط يتقاطع مع صدعٍ آخر في زاوية الباب، كَسَر منه كسرةً ووقف أمام السطور المحفورة سلفاً، وضع إصبعه على السطر وظلّ ساكناً، ثم شرع يحفر بالكسرة الأسمنتيّة الجدار ويسطّر خَلَجات صارخة دون صوت. نهضت، وحين وصلت إليه كان قد أنهى ما كتب ووضع إصبعه فوق السطر وظلّ ساكناً:

"أيها الموت لقد أبطأت بخلاصنا!"

كان هذا السطر الذي حفره فوق السطر القديم والذي بَهُت وتقطّعت حروف كلماته، دنوت منه أكثر وقرأت السطر بصوتٍ بطيء ثم علّقت عليه ببرود:

- لعلك تثق بالموت كثيراً، وهذا ما أوقعك هنا.

التفت إليّ بنصف وجه وضمّ شفتيه إلى داخل فمه ثم أفردهما قائلاً:

- كل ما نحن فيه كفيلٌ بأن يكون من رُسُلُ الموت.

فأكملت ببرودٍ أكثر:

- نحن يا رفيقي نموت كل يوم، بل كل لحظة، بل نموت مع كل

تكّة ثانية، ومع كلّ شهقة وزفرة.

ثم استدرت نحو الباب مضيفاً:

– نحن موتى منذ أشهر فلا تكذب على نفسك بانتظار الموت وأنت ميت.

جمع قبضته وأمسك رداءه بيده الأخرى وانتفخ صدره وصاح بي:

– اسكت، اسكت.

رفعت صوتي:

– نافذة الشقاء تتّسع كل يوم أكثر.

لم أُعره وجهي، بقيت في وجه الباب، وكل ما يعنيه الإحباط من معنى يغسلني غسلاً عنيفاً، لم أفطن له، حيث اتّقدت عيناه وازرقّ جلده وكأنّ شعر رأسه انتصب، وانقض عليّ وأطبق على رقبتي من الخلف لتنغرس أظفاره الطويلة في جلدي، وأخذ يميل بي لليمين والشمال، كادت روحي أن تعبر من بين يديه لولا تدخّل الرفاق وتخليص رقبتي من يديه، فتمازجت أصوات الجند من خلف الباب مطلّين برؤوسهم:

صوت ١: أيها الجرذان.

صوت ٢: اربضوا كالبهائم كما كنتم.

صوت ٣ إياكم ثم إياكم وإلا... (مُشيراً إلى سوطه).

صوت ٤ أتظنوننا غافلين أيها القمائم.

فخارت ألسنتنا، وتهدّل عنفنا، وبقينا في ركنين متقابلين.

٢

حين اتّكأ النهار دفعوا من تحت الباب صفيحة مليئة بالأرز المسلوق، وُضعت عليه دجاجة مشويّة، وأكواباً من المشروب الغازيّ، التقينا عليها كالناجين من الموت، ولأنفاسنا دفعٌ لا يستقيم، تضرب أيدينا في كلّ مكان من الصفيحة دون الشعور أين تقع، كان المهم هو أن نأكل ما يقينا شرور المرض أو سهام الموت.

وحين فرغنا من الأكل نظرت إلى الصفيحة، حين بدت تلمع من كلّ ما طُرح عليها، حتّى الزيت الذي طبخ به الطعام لا أثر له، بل لم نترك حتّى لمعته التي يبقى أثرها، دَلَقَ كلّ واحد منا المشروب الغازي في معدته وكأنّه سحابٌ فكّ ماءه على أرضٍ طحنها الجفاف، ثمّ اضطجعنا كالكلاب السائبة، يهرش كلٌّ منها جلده ويداري تثاؤبه ويحكّ عينيه ورأسه.

انسلبت الظهيرة حتى بات العصر قريباً، والشمس انحرفت عن النافذة صانعةً خطّاً عريضاً من الشعاع ليصطدم بالجدار المقابل. سمعنا صوت أحدهم يزيح الصفيحة والأكواب من خلف الباب وهو يكرّر شاتماً:

– هذه الكلاب لا تترك الصفيحة إلا بعد لعقها.

دخل بعد ذلك أربعة من الجند المسلّحين، ثلاثة حنطيو البشرة، طويلو شعر الرأس، اثنان ملتحيان والثالث حليق ورابعهم أحمر البشرة، ممتلئ الجسم، واسع العينين، طويل الشارب. ضربني ثالثهم بعقب بندقيته:

– انهض يا خنزير.

تعثّرت في قيامي ونهضت بصعوبة فدفعني من ظهري، لأصرخ صرخةً كادت تقتلني، فقد ضغط على جروحي ليفيق ألماً ساحقاً، سمعت شتيمته لمعن ونضال وعابد وصوت حذائه وهو يركلهم:

– هيّا هيّا يا خنازير هيّا...

أخرجونا في ثياب قصيرة بيضاء، وسلّموا كلّ واحدٍ منّا معولاً طويلاً وخوذةً صفراء بلاستيكية، وأركبونا في حوض سيارة نقل صغيرة زرقاء، يقودها فتى نحيل شديد البياض، بجانبه اثنان أشقران، يضعان في حجريهما أوراقاً غير مرتّبة. خرجوا بنا في طريق زراعيّة طويلة، أوصلونا إلى سفح جبلٍ صخريٍّ خالص، بجانبه خمس عرباتٍ ذات أحواضٍ كبيرة، حيث عمّال منتشرون، تعلوهم خوذات صلبة زرقاء، يحملون مطارقهم الطويلة، ويودعون ضرباتها في الحصى. أنزلونا كالخراف وأشار أحدهم لنا:

– قُضّوا من الصخور بكلّ الاحجام، واملأوا أحواض العربات جيداً، وإياكم ومحاولة الهرب، فستكون العاقبة مؤسفة.

أقبل بعدها جنديٌّ قصير القامة، بطنه زائدة، في يديه سلسلة طويلة تقسمها ثلاثة قيود بعرض الكف الواحدة، ذات حلقات واسعة، أوثق

كلّ قيد في ساق كلّ منّا، بين كلّ قيد والآخر سلسلة طولها متران أو أكثر.

كان الوقت عصراً حين بدأنا نضرب بالمعاول رؤوس الصخور وجوانبها، أمام تلٍّ يرتفع كثيراً عن الأرض ومن خلفنا ضجيج صرير آليّات تقطع الأرض بقواطع من الفولاذ.

٣

عند المساء أعادونا بشراً في هيئة مخلوقات مشوّهة، مبلّلين بالتعب، على رؤوسنا العذاب، ازداد سوادنا وانقبضت أنفاسنا أكثر، دبّ الموت كائناً يمشي معنا أينما ذهبنا، ما برحت الكلاّبات في أرجلنا، تسلخ حرارتها كعوبنا، حتّى عبروا بنا الممرّ إلى باب السجن، وهناك شرع أحد الجند بفكّها وصفها جانباً.

فُتح الباب فطار على أثر صوت مفاصله غرابٌ كان يقف على النافذة، غير أن ريشةً من سواده سقطت في المكان، ليرفعها معن بسبّابته وإبهامه الأيمن ساخراً:

– لا شيء ينتظركم غير السواد.

ثمّ دفعها من فوق كفّه بنفخة هادئة من شفته الغليظة، لتطير وتسقط على أنفي، نظروا إليّ ثمّ التفتوا إلى بعضهم وضحكوا بشدّة، ابتسمت ودفعتها بالوسطى لتطير وتسقط قرب المرحاض، ليكون الصمت أكثر الحاضرين لحظتها، لتتشبّث عناكب النعاس بأجفاننا وينطرح كلٌّ منّا نائماً مكانه من هول التعب الذي بذلناه عصر اليوم.

خليطٌ من الحلم واليقظة، ودوارٌ يعبث برأسي، "حلمت بأن

نسراً بثلاثة رؤوس يقف في الزاوية الأشدّ عتمةً، وكلّ رأس ينظر في جهة وينخفض ويعلو بعكس الآخَرَين. سألت بخوف: أنسرٌ ما أرى...؟! التفتت الرؤوس الثلاثة إلي، فرفع جناحيه الأشهبين، كان طويل الرقبة ضخم المناقير، حدبته شديدة، وله مخالب من الخشب وساقان قصيرتان يغطيهما شعرٌ أبيض كثيف، تخرج كلّما حرّك جناحيه رائحةٌ أنتن من الجيفة.

استويت مكاني خائفاً، وراح يقفز بيني وبين معن، ولخبط أرجله صوتٌ كانفجار البالون، أهشه عنّي كلّما اقترب، ولكنه لا يستدير عنّي إلا وينفخ بريح كريهة، من كراهتها أكاد أُغمى، رأيته يتّجه إلى معن وينقر هامته ويأكل الرأس الأوسط من دماغه، ثم يمسك الرأسان الآخران بمنقاريهما عضديه ويطير به من النافذة خارجاً بعد أن كسر سياجها وحدودها الأسمنتيّة...

صحوتُ كالمُراق عليه الماء البارد، ونظرت إلى معن فإذا هو نائم على بطنه وشخيره متصل دون انقطاع، اقتربت منه وهززته منادياً:

– مَعْن... مَعْن... مَعْن...

التفت إليّ في نصف صحو وسأل:

– ما بك؟!

نظرت إلى النافذة ولمست هامته مخبراً:

– رأيت في منامي نسراً بثلاثة رؤوس يأكل من رأسك.

ابتسم وردّ هازئاً:

– ليأكلوا ما شاؤوا، فالعمر برمّته أُكل.

ثمّ أغمض عينيه ونام. وعند الصباح صحوت على قرقعة المفتاح

في الباب ليدخل جنديّان أبيضان، متوسطا الطول، لأولهما عينان خضراوان، والآخر سوداوان صغيرتان، في يد الأول سلسلة سوداء ذات حلقات صغيرة دون فتحات تخترقها، في رأسها مقبضان دائريّان، قصدا مَعْن وركلاه فاستيقظ فَزِعاً مترجّياً:

– أرجوك أرجوك.

أدرجا السلسلة حول صدره وبطنه مبقين ذراعيه ملتصقتين بجسمه، وأخذاه مصحوباً بالركل والصفع، وتوسّله يضيع في الممر الطويل، ليصلا به نحو حجارة صُفّت على شكل مستطيل من الرمل الخشن، دُقَّ في منتصفها عمود من الجذع الطويل العريض، ثمّ نزعوا عنه ما يستر جسده عدا عورته المغلّظة وصلبوه حيّاً ومضوا يقتفيهم صراخه وطلبه العفو والمساعدة.

وحين كان المغيب يلمس الأرض طارت ثلاثة نسور شهباء ضخمة من فوق الجذع، مُخلفةً عظاماً نديّة بالدم، هي ما تبقّى من مَعْن.

الكُرّاسةُ السادسة

أُمنياتٌ مَقلوعةُ الأعين

١

ظهيرة اليوم التالي شعرت بتصلّب عروقي من شدّة ألم لثّتي، وبدأ صراخي يعلو مصحوباً ببكاءٍ مُرّ لدرجة أنني أقذف ما في بطني أرضاً وأنطرح وأقعد وألتوي كالملدوغ. انتبهت وهم يدفعون الباب بقوّة وينتشلونني كالمسمار من صلب الخشبة، أضجعوني على سريرٍ حديديّ تفوح منه رائحة دهان ثقيلة، إغماءة جثمت على دماغي، صحوت بعدها وأنا تحت ماء يقطُرُ من ماسورة صغيرة، أدرت رأسي في المكان: حمّام أسمنتيّ، وقطع شاش كبيرة عليها آثار دم، وأثوابٌ من القماش الخشن مربوطة بأحزمة بيضاء تمر بأطرافها خيوط سوداء

دقيقة. انحنيت ببصري لأجد عريّي مُخيفاً، فلا يفصل بين عظامي وجلدي شيء، قد اختفى لحمي، ونظرت في كفّي فإذا هي مقلوبة الجلد وكأنها جلد ضفدع، ابتهجت وأحسست بإنسانيّتي لأنهم نقولني إلى دورات المياه الكبيرة في السجن.

رفعت ظهري عن برودة الأسمنت، انزلق الماء من كتفَي إلى تجاعيد بطني الفارغة، ثمّ أسندت رأسي جانباً ودخلت في نعاسٍ ثقيل، حلمت بميمون في دنيا الأموات " شاردٌ في أزقّةٍ مظلمة، تتبعه خمسة أشباح في ثيابٍ من الضوء الأزرق، يظلّلونه من مطرٍ فضيّ يتساقط لزجاً كزبد الجمال، وهو يحمل في يديه رمّانتين غير ناضجتين، وينادي في الأزقة المتخمة بالظلام:

– خذوا دمي، خذوا لحمي وعظمي، أُقلُوا شحمي على وهج الجمر.

ثمّ يُتبعها بضحك هستيريّ رفيع جداً، تلتصق به وَلْوَلَة الأشباح وَهَلْهَلة ثيابها الضوئية خلفه، ثم يجلس على كرسيٍّ من الجماجم أمام طاولةٍ من العظام مُدّت عليها أسفارٌ طويلة، ليقرأ منها أخباراً عن العذاب البشريّ كُتبت بحبرٍ غليظ الخط...

صحوتُ من لفحةٍ باردةٍ نفضت جلدي، وصوت ميمون وهو يقرأ لم ينفصل عن سمعي.

* * * *

أنا هنا بعد أن أعادوني، مسنداً ذقني الطويلة ذات الشعر المجعّد من

الوساخة فوق ذراعي، يداي تضغطان على ركبتَيّ، وعيناي لا تفارقان النافذة الصغيرة التي ينكفئ عليها ضوء القمر الضئيل. أنين الرفاق هنا لاذعٌ للروح، أسمعه وأنا ألعق بلساني لثّتي الأماميّة ذات الأسنان المقلوعة، لعابٌ أتسلّى به هذه اللحظة، حيث رائحة الموت العالقة في أغطيتنا وملابسنا وفُرشنا.

خفتت أصوات الجند الجالسين في الحوض الأسمنتيّ، المتسامرين على رؤوس النارجيلة، وقلّت حركاتهم التي لا تهدأ مذ بدأوا سهرتهم البارحة، وانقطع خيط الدخان الذي تبثّه أفواههم الواسعة من شدّة الاستمتاع بطعم التبغ، فما بقي غير صوت القطط التي تلاحق بعضها حولهم، رحتُ أتسلّى بلعابي بين لثتيّ المقلوعة والأخرى السليمة.

عَبَرَت لحظتها رائحة طهي شهيّة، أغرت أنفي وَدَفَقَت شهيّتي، رائحة فزّت على أثرها معدتي وحرّكت جوع الرفاق، لينهضوا سائلين عن مصدرها.

اندفعنا نحو النافذة كذئابٍ عَزّر الجوع ببطونها، يزاحم بعضنا الآخر وكأنّه عدوّه، فتراءت أعيننا من خلف السياج كأطفالٍ يتامى سمعوا بموت والدهم فجأةً، صوت أصابعنا على السياج كنقرات أفراخٍ كسرت قشور البيض، معدتي تقرقر بقوّة، وشهيّة الرفاق ارتسمت على أفواههم الظامئة، ودون شعورٍ اقتتل سعد الدين وكريم من أجل الظفر بشمّ الرائحة قدر الإمكان، فارتطما سويّاً بالجدار يتعاركان والحشرجة تخرج من صوتيهما من شدّة صراخهما، دخل على أثر ذلك ستّة من الجند وأضجعونا جميعاً وانهالوا علينا بالسياط

الطويلة الحارّة، وصوت كبيرهم فوق رؤوسنا آمراً:

– انقولهم إلى الغرفة الخارجيّة ليذوقوا الويلات جزاء شغبهم.

أركبونا بعدها عربةً من عربات الجند الكبيرة، تتبعنا سياطهم ولعناتهم، وأغلقوا علينا تحت حراسة اثنين من الجند المسلّحين بالسلاح المتخم بالرصاص، وبعد السير على أرضٍ موحلة، في طريقٍ ضيّق رديء، أدخلونا غرفةً ذات باب صدئ ونوافذ حديديّة سياجية موصدة، مقفلة بأقفال من المعدن الصلب، أحكموا قيودنا الموصلة إلى أعمدة حديديّة ملحومة بالحائط، متقابلين كالقردة، وصوت كلبٍ في الخارج ينبح منادياً مجموعةً كبيرة من الكلاب التي راحت تحوم حول الغرفة.

٢

- أتمنى أن أُدفن ليلاً.

نطقها كريم وهو يغلق عينيه من جثوم اليأس عليه. أخفضت رأسي شاكياً:

- هذا المكان أنساني حليب أمي... لقد تبدّد حلمي في امتلاك بيتٍ صغير وبناء أسرةٍ جميلة، وذهبت لذّة الاستقرار التي عاشت داخلي سنوات أنتظر تحقيقها...

رفع رأسه ودمعه يقطر لزجاً:

- أتمنى أن أُدفن ليلاً، لأنني أَلفت الظلام، الظلام هو الخَلْق الوحيد الذي أعرفه، أمّا بصيص النور الفقير الذي يأتينا من النافذة اللعينة فهو ليس إلا آخر ما بقي من حريّة النور التي نتذكّر بها سنوات إنسانيتنا.

ثم صمت ووجهه في الأرض وظهر ذراعه القليل الشعرمُبلّلٌ بلزوجة دمعه وقِطَع مُخاطه، ليعود يضغط عينيه على كتفه مكملاً:

- كان أبي بقّالاً صغيراً ورث دكّانه من جدّي، لذا كان معظم وقته خارج المنزل، وحين اعتقلوني باع دكّانه بما فيه من البضاعة

ليخرجني من هذا القبر، إلا أنّه فشل لأنّ الخصم لم يكن بشراً أبداً، كان غولاً في أنظمة دولة.

وحين سكت طأطأ بقية الرفاق رؤوسهم ساكتين كما هم مذ أولجونا في هذا الألم.

ولمّا دَفَقَ المغيب حمرته الحارّة، وتحرّكت قطعان الظلام لتغطّي الأرض، ونحن هائمون في الظلمة الأشد، لم تكن قطرات النور القمريّ الآتية من ثقوب صغيرة في النافذة تُحيي أقلّ أملٍ فينا، يجاورنا صفير الصراصير ونقيق ضفادع عالٍ من خلفنا، وماءٌ راكد في وعاءٍ دائريّ من الخشب، وخبزٌ يابسٌ على صفيحةٍ من السعف الأصفر. استيقظنا على صراخ حادٍّ أطلقه عابد، ليهرب من خلفه عقربٌ ضخم أسود، ظهره مرقّط بنقط صفراء غير مُتقاربة، بعد أن لدغه في ظهره وأودع التّلَف فيه، ودخل جحره أسفل منه.

بعد لحظات تدلّت أعضاء عابد وانتفخت من أثر السمّ وازرقّ لحمه وخرج نتنه مالئاً الغرفة... وقع أقدام قادمة مرجفة بوطئها على الوحل، فأحسست بألمٍ ساحق يبتر أطرافي ثم يعيدها خَلْقاً جديداً ثم يبترها، والرجفة تأكل جلدي، أتى بعدها طرقٌ مزعجٌ على الباب. نظرت إلى الرفاق وهم يتلفّتون إلى بعضهم، تساءلت كيف لمقيّدين أن يفتحوا الباب، ليدخل ضابط يسبقه صفير بصاقه، على وجهه ندبة فوق عينه اليسرى، وَبَرَصٌ يطفو على جلد يديه ورقبته، يتبعه سبعةٌ من الحرس. رأى جثّة عابد منزلقةً تحت القيد، فاقترب وفكّ القيود عنّي وسحب كفّي اليمنى ووضع خنجراً شديد العكفة، مطرّز المقبض، على نصله لمعة بارقة، أغلقها على مقبضه آمراً:

– هل سبق أن أذقت أحداً طعم الموت؟

وأتبعها بابتسامة تنبئ عن خبث القصد. قلّبت بصري في لمعان الخنجر واستلبني خوفٌ منه، فضغط على ذراعي بيده الخشنة الطويلة الأصابع، مُعيداً بحزم:

– هل سبق أن أذقت أحداً طعم الموت؟

هززت رأسي بالنفي. راح يتلفّت في المكان ويحدّق في الرفاق، ثم نظر إلى جثّة عابد وقال دون أن يعيد وجهه نحوي:

– صاحبكم هذا لم يُرد أن يتأخر كثيراً على الموت فسبقكم إليه، ثم ألا ترى صاحبك الصامت هذا؟

وكان يشير إلى نضال، وهو ينظر دون أن يسقط جفناه على بعضهما:

– لقد ملّ الحياة وما عادت له طاقة على العيش أكثر.

ثمّ ضربني على وجهي بظهر يده القاسية كالخشب وصرخ بي:

– اقتله يا كلب... اقتله!

انتفضت يدي وبدا النصل يهتزّ وذراعي تبرد. ركلني في ظهري وكدت أسقط، ووضع فم البندقيّة على قفا رأسي آمراً:

– اقتله.

وضغط بالبندقية أكثر قائلاً:

– أو قتلتك.

نظرت إلى نضال وفي وجهه الرضى عمّا سأفعل به، فشددت على المقبض وأغمضت عيني وسدّدت طعنةً واحدة نفذت في صدره، ولم أفتح أجفاني رغم رائحة الدم التي اندلقت منه على ردائي وَشَعر

بحرارتها جلدي. فتحت عيني على صوت الضابط وهو يصفّق لي قائلاً:

– عظيم... عظيم... عظيم.

ثمّ ركلني بعقب بندقيته لأسقط أرضاً، وقام بسحب الخنجر من صدر نضال وأعاده إلى غمده الذي من أصل حزامه البنيّ العريض.

التهمنا الصمت دفعةً واحدة، فلا أحد غيره هنا يوزّع الحياة والموت علينا. نظر إلينا نظرةً جماعيّة وقال:

– لم يعد لدينا وقت لدفن الميت منكم، السباع أنهكها الجوع في هذه المنطقة، ستكونون خير من يسدّ جوعها.

وأعقبها بضحكةٍ بلغ الشرّ فيها مبلغه، ثم خاطبنا بصيغةٍ أكثر سخرية:

– أعدكم بأن نحتفظ برؤوسكم، لتكون تذكاراً لأهاليكم حين تُدفع أجسادكم إلى بطون الدواب.

ثم أشار للحرس فأدخلوا الجثّتين في كيسٍ للنفايات وألقوه في حوض العربة العسكريّة، ومضوا مغلقين الباب يسبقهم ضحكه الصاخب وهو يصعد العربة. بعد هذا بلّلت ثيابي من الخوف، لم أستطع التحكّم في نفسي من الأهوال التي لا تنتهي هنا بقدر ما هي تتوالد بسرعة.

* * * *

في الصباح، صحونا على مائدة من الصفائح الصغيرة المملوءة

بالخضار والخبز الأسمر وأكواب الحليب الموضوعة جانبها، حيث حُلّت قيودنا دون أن نشعر، لقد أنامنا الخوف لدرجة لو عبث أحدهم بنا لما شعرنا به. قفز كلٌّ منا من مكانه وتحلّقنا حول المائدة الصغيرة وما كان إلا صوت المضغ الصاخب من أفواهنا الجائعة.

وفي اليوم نفسه أعادونا إلى نفس السجن عند منتصف الليل، ذلك المكعّب المظلم، فرأيت نفسي في صفحة الضوء الأزرق المنعكس على الحائط الرمادي: استحلت مُتفحّم الجلد، شديد التواء اللسان، فاقداً معنى البشريّة بكلّ ما يعنيه الفقد، عيناي، ما برحت صورة كاتلين ولذّة أيامها وخمر لياليها تسكنهما كما لو أنهما مطبقتان على ثمالة العمر معها، أكذب لو قلت إنّها لم تسكن روحي.

خشخشة المفاتيح التي تقبل علينا يوميّاً أصبحنا نفتقدها حين لا يرنّ صوتها في الممرّ الصامت كصمت الضرائح وهدأة الرمل بعد عبث الريح الغاضب.

الكُرّاسةُ السابعة

أفئدةٌ مُتخمةٌ بالألم

١

بعد صباحين فتح الباب أربعةٌ جسام، قبضوا عليَّ من ردائي أسفل عنقي بعد أن جرحت أظفارهم جلد صدري، جذبوني ورفاقي إلى الخارج حيث الشمس التي جرحت سهامها أعيننا لغيابنا الطويل عن النور وملامسته نتانة جلودنا. ضحكٌ وهرجٌ ساخرٌ وأيديهم الجريئة تطال عوراتنا المغلّظة وكأننا بغايا أباحوهنّ لأنفسهم. ما عدت أقاوم الركل أو الوخز، اعتدته لدرجة افتقادي له.

دفعونا بعدها تحت ماسورة كبيرة، وجهها إلى الأسفل وهي معكوفة على شكل الرقم ستة، حيث قالب من الثلج المكعّب الكبير، أوقفونا عليه

حفاةً عراة، مرسلين ضحكهم على النتن الذي يفوح من آباطنا وما بين أفخاذنا، خلاف رجمهم لنا بحجارة الطين التي تنفجر على أجسادنا وتلتصق ببللها. فاجأني اندفاع الماء من الماسورة بقوّة تشبه اندفاعه من خراطيم إطفاء الحريق، برودة آمنت أنها قاتلتي لا محالة. نزلتُ عن القالب فأعادوني إليه بلسع عصيّهم ودفع أيديهم، عروقي تجمّدت ولحمي يبس، دفع الماء يضغط رأسي فأكاد أسقط، أغمي على كريم، وانزلقت قدم سعد الدين وتحطّمت جمجمته على القاعدة الحديدية التي تحمل القوالب الثلجيّة، فغدا رأسه شظايا متناثرة القطع غارقة في الدم.

خرج لي من تحت الماء طيف كاتلين، يلمع جلدها تحت البرودة، أخذتني بين ذراعيها فهدأ روعي وغلى جسدي مُكسّراً البرودة التي تربض عليه، أذاقتني رغوة قبلتها فسقطت على القالب ولا أدري أسقطت من التجمّد أم من قبلة كاتلين.

صحوت بعدها لأجدني مُسجّى على سريرٍ خرسانيٍّ، حرارة جسدي تفور، وارتجافٌ يقرض أطرافي ويأكل مفاصلي، ولحاف من القماش الرديء غُطّي به نصفي السفلي. سألت الواقف على رأسي، ذلك الجندي الأبيض العريض، ذا الشارب الأشقر القليل والعينين الخضراوين:

– أيّها الجندي.

–

– أين الرفاق؟!

أخفض بندقيته إلى الأرض وأجابني:

– دُفعت جنازة أحدهم للرمل قبل ساعات، والبقيّة موزّعون في الغرف كالجرذان.

عجزت عن جرّ عينيّ عنه، فمي مفتوح قليلاً، وهو كذلك ما جرّ عينيه عن عيني، ما قام به بعدها هو أنّه رفع بندقيته ولكز كتفي بعقبها ناصحاً:

– لا تكثر الأسئلة عن الخونة.

– ولكن...

قاطعني وهو يضغط على كتفي:

– ابتلع لسانك يا نتن.

أبعد عَقب بندقيته بعدها عن كتفي وعاد إلى نفس مكان حراسته، ولسانه يأكل فيَّ بصوتٍ شاتم:

– حشرة قذرة.

تعلّقت عيناي بالسقف الخرسانيّ المسرف عليه بالطلاء الشديد السواد، لا شيء غير الحديد والأسمنت في هذا المكان. استسلمت لضغط الحمّى على لحمي.

أُمر بعدها بنقلنا إلى السجن العام، نحن الأربعة: أنا وكريم وعبد السلام وبنيامين، من أصل ثلاثة عشر كانوا رفاق العذاب، بعد أن تساقطنا تباعاً لكلٍّ منّا طريقة للموت يحدّدونها سلفاً.

غادرت بنا العربة عابرةً شوارع المدينة الواسعة قبل الضيقة، سائقها يبدو في العشرينات، أنفه ضخم جداً، وشفتاه دقيقتان متشقّقتان، تحتهما بثور سوداء، وأنا خلال سيره بنا أستعيد من ثنايا ذاكرتي كل يومٍ أبليته وانقضى، كأنّ ملامحنا المخيفة في صندوق العربة أشبه بسحرةٍ أشرار. أفزعتني فجأةً صرخة كريم حين شقّ قميصه وبدا صدره عارياً، وهو يضرب بقبضته اليمنى صفيح الشاحنة مشيراً إلينا:

– جبناء جبناء.

ثم أخذ يلطم وجهه ورأسه مكملاً:

– أمواتٌ أنتم، نبشوا قبوركم وبعثروا عظامكم، وكأنّه حدث بعد مئات السنين من دفنكم.

–

– لعنات الأرض ستلاحقكم إلى قبوركم مرّةً أخرى.

شعرت بالحرج من حديثه الغاضب، ثمّ أكمل وكأنّ نعاساً أرخى جفنيه:

– يوزّعون الموت بلا أهداف.

وأثناء الطريق، وعلى اهتزاز العربة بنا على حفر الطريق وانعطافاته المتكرّرة، مسّته الحمّى وأسدته أعلى درجاتها، لدرجة أنّه يتقيّأ بمرارة وصعوبة، دمٌ وصديد يقفز من بلعومه على قدميه وذراعيه، فتوقعته ينزف أحشاءه، لسعته رعدة شديدة، ليغيب عن الوعي ويداه مستمرّتان بالارتعاش، وما إن غرق في الحمّى حتى أحسسنا بأنّ أقسى منيّة في الأرض ستكون لنا.

فزع عبد السلام وشرع يضحك بهيستيريّة جحظت منها عيناه، ومضى في صراخٍ مستفز. نظرت إلى الشوارع من سياج العربة فبدت وكأنها يابسة محمومة، وعدت أنظر أمام قدمَي إلى بقع الدم والبصاق ورائحة الأوساخ، وضحك عبد السلام يضعف شيئاً فشيئاً. أدرت وجهي مرةً أخرى نحو مساحة القحط الطويلة، تمنّيت قارورة خمرٍ للنسيان على الأقل، فطنت إلى بقع حمراء ظهرت على كفّي ورعشة خفيفة أكلت قدمَيّ، وألم غاص فيّ ساقَيّ، ورشح مفاجئ لثَمَ أنفي، أحسست بإعياءٍ زائد ينتابني.

٢

– لم أنتسب لبلاط، وعلاوةً على نكد حظّي وحقي المبخوس عشتُ منتقصاً محروماً، لكن حاشا أن أكون كلباً للوزراء.

كان هذا كلام بنيامين لي حين توقّفت عجلات العربة التي أقلّتنا من الزنازين الضيّقة إلى السجن الكبير، حيث المساحة الواسعة والجدران الطويلة، التي عُقدت عليها أسلاك شائكة ذات أسنّة أطول من أنياب الأفعى، وكراسي الخشب الرخيص، المنثورة في كلّ جهة منه.

مات كريم من طفح الحمى في عروقه وبعثوا جثّته إلى مستشفى السجن، أمّا عبد السلام فلم يعد عقله إليه بعد ضحكته تلك، حيث أنزلوه من العربة يرقص ويغنّي ويهتف للسلطة ببذاءاتٍ لا تُقال غالباً، وأودعوه المصحّة العقليّة، كسجينٍ استوفى حكمه كاملاً بفقدان عقله.

أصوات السجناء والمحكومين تتمازج بين الحديث الجانبيّ والشتم العلنيّ للوزراء والحاشية وفقهاء السلطان، جُملٌ ليست بغريبة عن قناعاتي البتّة، رؤوسٌ تتجاور وتتهامس، وأذرع موشومة، وألسن

أقلّ ما توصف بالساخطة:

- كيف تثق بهم وهم يسبّحون بحمد السلطان ليلاً ونهاراً؟

وآخر:

- أخرجوني من الظلمات وأولجوني في ظلماتٍ أشدّ.

أنزلانا نجرّ قيودنا الثقيلة ونسحب خيباتنا الطويلة، الحكم المؤبد هو ما انتهوا إليه بخصوصنا. مضوا بنا، أنا وبنيامين، حصيلة الثلاثة عشر الذين مضوا يخطّون سويّاً ملامح الموت، عبروا بنا درباً ضيّقة طويلة تنفتح عليها من اليمين غرف صغيرة أظنّها للملابس الداخلية، ومن اليسار حمّامات ضيّقة سقفها مفتوح كما هو واضح من أسنّة الشمس المنغرزة في أرضيتها، بلاط الدرب أبيض باهت حدوده خلّفتها الأتربة سواداً عظيماً، تتناثر أعقاب السجائر المطفأة بالأقدام في كلّ شبرٍ منه. استقبلنا ضابط ضخم ذو بطنٍ مخيفة، يلبس بدلة تكاد أزرارها تقارب المائة من كثرتها، بيده عصاً قصيرة نصفها مغطى بلاصقٍ أصفر، حكّ أنفه سائلاً الجنود:

- أهم هؤلاء؟

بعد أن قدّموا له التحيّة العسكريّة، وبشيءٍ من الخنوع أجاب أحدهم:

- نعم سيّدي.

ليردف الآخر:

- حكمٌ مؤبّد، للتو أنهينا كلّ الإجراءات المتعلّقة بإحضارهم لقضاء محكوميّتهم هنا.

أطال الضابط النظر فينا مبتسماً بشماته:

- خذوهم.

أعطونا ملابس زرقاء داكنة وطلبوا منا ارتداءها بسرعة وتسليم الملابس القديمة التي أنتنت من عفن جلودنا وكريه روائحنا المنبعثة من مسامّنا، التي استحالت بقعاً سوداء من حرارة العذاب. خلعنا ما علينا من ملابس ليأخذها عمّال النظافة ويدخلوها مع النفايات في برميلٍ أصفر طويل بيضاويّ، غسلنا وجوهنا بعدها من خزّانٍ مربّع مصنوع من (الحديد) الرخيص، زواياه شديدة الصدأ، لمحت وجهي في صفيحته، فلم أعرف نفسي: لقد تحوّل وجهي إلى وجه عفريت!

دفعونا من رقابنا لندخل ضمن قطيع المقهورين هنا، سافر بصري في كلّ اتجاه: جدران كُتبت عليها نُكاتٌ خليعة ورسومٌ عارية، ومحكومان طويلان أبرصان يتقابلان على طاولة خشبيّة مخطّطة بطبشور أرزق يلعبان عليها لعبة شعبية، وثلاثة يجلسون القرفصاء متقابلين وكأنهم سمّار، وخمسة يقفون متقابلين غير بعيد وصوت ضحكهم يعلو ويخفت كُلّ لحظة، وآخر يتقيأ دماً في حفرة صغيرة تحت الجدار، وذلك أثر خبطة أهداها له أحد الجند قبل دقائق.

آلام لثتي بدأت تؤرقني لحظتها، إضافةً إلى ألمٍ مجهد يشتعل في عمودي الفقري، عشرات الوجوه تراقبني وأنا أُنازل الألم، فاشتدّ إيماني بعد ذلك بأنّ الحريّة لا تُكتب إلا خلف القضبان.

٣

تقاعست خيوط الضوء من القمر الفضيّ العالق في الظلام؛ عتمة أَشْبَعَت دائرة الأفق، ونحن تحتها كالخفافيش الجائعة، تهدّل وجهي، وازرقّت شفتي، تغيّر شكلي وتبدّلت هيئتي وكأن وحشة الدنيا كلها تزاحمت في تجاويف عظامي.

فجأةً فطنتُ لصوت نزاع اشتعل بين بنيامين وأحد الجنود، على أثر رفض بنيامين خلع نعليه وانتعال ما يخصّ السجن، عناده دفعه لنعت الجندي بابن الساقطة وتشبيهه بالوَزَغ، فاستدار الجندي مغادراً ورائحة الانتقام تغطّي المكان.

وعند الصباح، قبل الظهيرة بساعتين، دخل علينا عشرة من المقنّعين وأحاطوا بالمكان الذي أقتعده أنا وبنيامين، فسفعه أحدهم على وجهه بالسوط، وضربه الآخر بعقب بندقيته على عنقه فوقع، ثمّ أكرهونا على أن ندوس أطرافه ونبصق عليه ما استطعنا، هكذا طيلة النهار حتىّ أمرونا بالابتعاد عنه وهو جثّة مهشّمة العظام ومفتّتة اللحم.

وحين استقام عمود الظهيرة خرجت في جنازة بنيامين المشوّهة،

التي أضحت دون ملامح ودون أعضاء صحيحة. أضغط عينيّ باكياً بعد أن ضربت برأسي الحائط حتى تشقّقت جبهتي لفرط شعوري بأني من ضمن قاتليه، تماماً كما قتلت نضال مُكرهاً. رائحة الندم تنضح من جلدي، وأسأل نفسي: متى دوري؟! فما أنا الآن إلا خاتم الثلاثة عشر قتيلاً وقُفْلُ عذابهم.

شيّعه السجناء كلّهم، بعد أن سمحوا لنا بالخروج خلف جنازته، فثمّة مقبرة خارج السور، قديمة جداً، قبورها واطئة، وأخرى ردمتها الرياح وباتت فيها الكلاب، وأخرى تركت فيها السباع بقايا فرائسها، كانت مقبرة دون سور، لأنها جداً بعيدة، لم تكن مخصّصة أو معدّة للدفن، بل هي أرضٌ زراعيّة سحقتها سنوات المجاعة وأهملها أصحابها المهاجرون. وحين وصلنا هزّت صدري خفقات قلبي من الهول والوحشة، فاستجمعت قوتي وقلت بصوتٍ رفيع:

– اختاروا لحداً واسعاً.

لم يجبني أحد، سوى ضحكات ساخرة من طلبي. أخذت معولاً صغيراً، وخلعت قميصي، وأزحت التراب كما يجب، وحين أنهينا دفنه ألصقت خدّي بترابه قائلاً:

– أنت هنا في أمانٍ أكثر.

يقيس المشيّعون حزني ببصرٍ ضعيف، هكذا شعرت لحظتها، قدّموا لي العزاء حين رفعت يدَيّ عن النصيبة المبلّلة على رأس القبر، أحسست بعدها أنّ الموت امتصّني ولم أمت، فغادرنا ومن بعيد لوّحت لقبره مودّعاً.

عدتُ وتراب بنيامين ما برح كفَّيَّ، دفعونا بعد تشييعه بصمت،

لأول مرّةٍ لا يصرخ الجند فينا، قطعت السجن دون شعور، نحو غرفٍ صغيرة متقابلة، دخان سجائر يعلو وكحّة تنطّ من حلقٍ ضيّقٍ يخرجها متقطّعة.

الكُرّاسةُ الثامنة

حديدٌ يئنّ في المَعَاصم

١

عند الصباح عثروا على أحد السجناء متدلّياً فوق المرحاض، من حديدة صدئة من السقف، تشدّ عنقه قطعة قماش بيضاء، شفته السفلى مرتخية، ودم جوفه نديٌّ على لحيته. وقبل احتماء الشمس وقف تحت جثّته طبيبٌ قصير، شعر رأسه خشن، ووجهه طويل، ذو عينين عسليّتين، يلبس بنطالاً أسود، وحول عنقه تسقط سمّاعته الطبيّة التي شرع ينقلها في مواضع مختلفة من الجثة، بعد دقائق أطلقها من يده، وسحب بمقدّمة أسنانه غطاء القلم وكتب على ورقة صغيرة سطراً ونصف السطر، وأعطاها للجنديّ المقابل له، وبعد وقت أخرجوا

الجثّة مغطّاة بشرشف أبيض إلى مستشفى السجن.

* * * *

بعد أيام أخذني من عَضُدَيّ جنديان مقنّعان وشقّا بي طريقاً طويلاً بين غرف كثيرة حتّى وقفا بي، ليقول الأول:

– عليك أن تذكر دائماً أنك أُكرمت هنا.

وأضاف الثاني:

– ولا تنس أن عشرات الجنود سهروا على رعايتك.

هززت رأسي أسفاً، ليردف الثاني:

– اعتبر ما مضى لك ضيافة.

ثم أطلقا عضدَيّ وحشراني مع ثلاثة سجناء ذوي بشرة سوداء في زنزانة مستطيلة غارقة في الرطوبة ويتخمها العفن، مساحتها خانقة، أرضيتها من الحديد الخالص الملقى عليها برواز مقسّم إلى مربّعات خشبيّة، وعتبة بابها أسمنتيّة خارجها أُغلق بحديدة أنبوبيّة، جدرانها الثلاثة خرسانيّة صلبة، عدا جهة الدخول حيث أُعملت سياجاً غليظاً، من جهته اليمنى باب يقارب عرضه الثمانين سنتمتراً تقريباً.

لا أدري كيف تجاوزت قلّة الهواء في هذا المكان، وأنفاس السجناء تتخطّف أنفي، زيادةً على رائحة كريهة لا تخطئني، تشبه رائحة البيض الفاسد. امتدّت كفّ أحدهم وضغطت على ركبتي اليمنى:

– ماذا فعلوا بك؟

عرفت أنه الذي يقابلني في هذه الحلكة، ركبتاه إلى ركبتَيّ وحرارة أنفاسه تشطف وجهي:

– سلبوا إنسانيّتي، قلت له.

– سبقك محكوم، سترتة ممزّقة وملوّثة بالدم الجامد، وعلى وجهه شطوب وكدمات كبيرة، قال الآخر.

– المنسيّون في ازدياد في هذا المكان، قلت له.

غيّرت جلستي محشوراً بينهم وأعقبت:

– وأين هو الآن؟

سمعت أفأفة وإجابة تعقبها:

– مات من ساعة، انتبهت لارتخائه على كتفي، قبضت وريده فاطمأننت إلى أنه مات، ليرتاح من مصيره هنا.

وما إن أتمّ كلامه حتّى فُتح الباب وأشاروا إليه، وسحبوه وضربوه بأعقاب البنادق وأحذية الجند، وإلى جدار طويل أُوثق وصلبت يداه ثمّ أنزلوا عليه ويل السياط حتى بلّله الدم، ليموت في المساء.

٢

بعثر النور خصلات الظلام، وطاح غطاؤه عن وجه الصباح، عَلمت ذلك من صياح ديكة في نهاية السور الملاصق للزنزانة، فالنور يمشّط الجدار خلفنا لكنه لا يصل هنا بتاتاً، عدا مصباح مائل معلّق على الجدار المقابل لنا خارج الزنزانة، والذي يتركه الحرس غالباً للآتين خلفهم من جلاوزة الليل، الذين يحملون مشاعل مثلّثة ذات نقوش ورسم عريض، حيث تتجاوز تصرفاتهم كلّ خطوط الإنسانيّة.

أرحت رأسي على الحائط المتقشّر، أستبدل ضوء الصباح بضوء المصباح المقابل، لبستني رغبةٌ جامحة أضعاف ما في حصان قهرته البيداء وآلمته سياط فارسه، فاندفعت نحو السياج وأخذت أضرب جمجمتي بكلّ ما أوتيت من بأسٍ ويأس، أُحسُّ تهشّم عظمي ونزف دمي، واندفاع مخاطي على الحديد، وقبضتَيّ تَصرّان بشدّة على السياج، وأنا ماضٍ في رض نفسي، صياح الجند يطوّقني:

- توقّف أيها المجنون.

وآخر:

- ماذا تفعل يا أحمق؟

وآخر:

– هيه... ماذا تفعل بنفسك؟

لكني لم أهدأ ثانيةً واحدة، أضرب وأضرب هذا الرأس في السياج حتّى تشبّعت من رائحة الدم والحديد، وما كنت أعرف ما بي إلا آخر ما سمعت أحدهم يقول:

– أظنّه مات!

فتحت عيني فبادرني وخزٌ كالدبابيس على أجفاني، رأيت احمراراً وشيئاً من الدوران اللذيذ، وبعد ساعات في مشفى السجن انطفأت حُمّى الجراح واستعادت جمجمتي كل برءٍ غادرها بعد لفائف الشاش وقطرات الضماد، غير أن حنجرتي يبست وبصري قَصُر عن النظر أكثر. وقع أقدام الجند خلفي مساقٌ إلى حيث أنهكت رأسي على السياج الطويل الأسود، الذي بقيت لُطَخُ دمي عليه، وقِطَعُ جلدي المنسلخ ما زالت عالقةً بالأرض وعلى حدود الحديد. الرفيقان الأسودان يرقدان في الركن هنا، أشبه ما يكونان بخنزيرين هزيلين طواهما الجوع للنوم في ركن الزريبة:

– امضِ.

لكزني الجندي بعد ذلك في أسفل ظهري وأغلق الباب، وصوت همسهم يبتعد حتى قطعته قطرات الماء القادمة من كوّةٍ صغيرة في السقف.

ما رمشت عيني من ألم حواجبي التي نَتَفَت نصفها الجروح، أيّ جهنم الأرض التي أولجتني فيها التهم والشكوك الحكوميّة!

بقيت واقفاً ووجهي للممرّ، سألني الأول:

- هل أنت بخير؟

أعاد الآخر:

- هل أنت بخير؟

أشرت برأسي أنني بحال جيدة، أردفتها بضحكة تغسلها السخرية، وبقيت عيني تفرش بصري في دمي وقِطَع جلدي ورائحة صراخي هنا، فما أتممت ذلك حتى غازلتني رائحة طهي لذيذ، أُدخلت من تحت الباب صفيحة كبيرة عليها الكثير من البيض المسلوق، تدور عليها قطَع طويلة من البطاطا المقليّة، تبعتها ثلاث علب من المياه الغازيّة وثلاث علب من الماء، عليها شعار لشركة عرفت برخص إنتاجها وسوء سمعتها.

في الليلة التالية، كنت أكتب بأظفاري على الجدار المعتم بعض مذكّرات الألم هنا، فشتّتني ضجيج للجند ملأ الممرّ بالريبة، ينادون سجيناً يزحف من تحت أكوام الحديد والسلاسل، فانهالوا عليه بالعصيّ وقطّعوه بخناجرهم الواقفة على رؤوس البنادق. أصابتني قشعريرةٌ حارقة، وبرز من بين أولئك الجند أحدهم، يضع بطانيّةً زرقاء على كتفه، عليها خطوط عريضة، وفي فمه غليون طويل بنيّ، صفع فخذه بيده قائلاً:

- أما كنت دوّنت جرائمك بعيداً عنّا؟

ثم أمر رفاقه وفتحوا الباب واقتادوني من عنقي إلى غرفة أشدّ ضيقاً من القبر وانهالوا علي ضرباً بالعصيّ حتّى انفصل وعيي تماماً، يصعب أن أصف الرعب والترويع الذي أذاقوني إياه.

بعد ذلك منعوا عني الماء يومين كاملين، أوشكت على الهلاك

ظمأً، انطويت كسبع ذليل، فتنفست عميقاً جداً وأخفيت وجهي في راحتَيّ، وكيف أنّ الموت يتمهّل ليتركني أتعذب بفناء كل شيء حولي. فتّت سفري النفسيّ طلقات رصاص كثيفة، فإذا بجنود يُنزلون الإعدام بسجينٍ في زنزانته، زهقت روحه، وفُتِحَ قبره في الصباح. نظرت إلى الزنزانة التي تقابلني، كانت عينا السجين فيها تتوسّلان بكلّ شيء، وهو يجرّ المسامير من قدميه، جذبه الجند وبتروا قدمه، ففاحت رائحة الدم النازف كما فاحت روحه.

أملت بجسدي على الجدار المعتم، بعد أن آمنت بأنّ الجند هنا قد انفتحت شهيّتهم للقتل.

٣

أطلّ الصباح كئيباً، لم أنم ليلتي تلك، رغم هدوء السجناء غير المعتاد، حيث لم يكن صخبهم يهدأ لحظةً واحدة في السابق، فكلّ دروب الأمل قد ضاقت وأنا في أحضان السلاسل. سمعنا هدير محركات هزّ رؤوسنا المُدارة من النوم، ضجيج الجند يتوزع في كلّ جهة، عَدوٌ لجماعةٍ تقترب منّا، فُتح الباب بسرعة ودخل علينا أربعة متساوون في الطول، مقنّعون بأقنعة بيضاء، أحكموا الأصفاد الثقيلة في معاصمنا ودفعونا خلف بعض، آذى جلد ظهري مُلصقٌ حارٌّ وضعه أحدهم قائلاً بلهجة شامته:

– اسمكَ الرقم ٧

هززت رأسي كنايةً عن الموافقة، أحكموا سلاسل الأرجل المنتهية بكرةٍ حديديّة مثقوبة الرأس، ومضوا بنا قاطعين دربًا ضيّقة بين غرف مظلمة وزنازين يعطّ صدأ حديدها. كان الصمت رفيقنا أيضاً، لدرجة أنني أسمع صوت قطرات الماء الملوّث وهي تخرّ من سقوف الغرف، وأنيناً خافتاً لسجين عجزت عن تحديد مصدره. أسرعوا بي فسألت:

- إلى أين تذهبون بي؟

- ابلع لسانك.

قالها السائر خلفي ونخزني من مؤخرتي، ثمّ دقّ كتفي بعقب بندقيته، لم أُخرج لساني بعدها خشية عقوبة أو أذىً يرسمونه لي زيادةً على ما أنا فيه.

أوصلونا طابوراً طويلاً في مؤخرة إحدى الحافلات المتتاليات، حافلات كبيرة، تشبه حافلات المطارات، بدون مقاعد، تتدلّى من سقفها مقابض من السلاسل الغليظة المستطيلة. أذكر أنني كسبت رؤية الشفق بعد أشهر طوال من لعنة السواد وحلكته.

اصطففنا كالنمل، صعد ضابطٌ بدين إلى الحافلة وهو يشير بيده ويخاطبنا من مكبّر صوت في يده الأخرى:

- الرقم ١٣

فخرج به الجند وقذفوه في الحافلة الأولى، نظر إليّ الرفيقان الأسودان وقال الأول:

- لا تنسوا أسماؤكم.

- ما اسمك؟

قلت له بسخرية، وبسخرية أشدّ أجاب:

- الرقم ٤.

فما أتمّها حتى جاء النداء الخشن من أعلى الحافلة الثالثة:

- الرقم ٤.

ليختطفه جنديان جسيمان ويقذفاه في الحافلة، وأتبعوه بسجناء آخرين يعلوهم الألم.

تتسع شفتي ابتسامةً كشعرة بيني وبين الجنون ما عادت بعيدة النزع، فالقنوط لا يهدأ مذ عَلقت حياتي في جهنم الأرض هذه. بتر سَلْوَ نفسي صائحٌ برقمي:

- الرقم ٧

فأطبقت كف كبيرة على عنقي وجرّتني نحو الحافلة بسرعة، أركض مُسايراً بنفس السرعة، والصائح لا يكف عن طلب السجناء:

- الرقم ١٣

وصائحٌ آخر:

- الرقم ٢٢

غمسوني بين كتلٍ بشريّة يكاد زحامها يفجّر الحافلة، بعضهم جالس وآخرون واقفون، صيحاتٌ وبكاءٌ مَرير، وشيخٌ مقوّس العظام ينادي بهم:

- إلى أين؟ إلى أين ستذهبون بنا؟

مضت الحافلات في إثر بعضها بعضاً، عبر طريقٍ لا تهدأ أرضه من رجفنا بمرتفعاتها ومنعطفاتها القويّة وحفرها، أنّاتنا جارفة وكأننا كلاب تلهث على دربٍ جافة.

بعد ساعات تمدّد الصمت، وكأننا صغار طير امتصّها الجوع، وبدت رقابها تؤرجح رؤوسها على أرجلها، أعينٌ اكتحلت بالحزن، وأنفسٌ عاجزةٌ عن فهم ما سبّبوه لنا من عذاب، هدأت الأنفاس تنصت للصمت أكثر، عدا أصوات المحركات التي تتسارع مع كل استقامة للطريق، وتهدأ بشدّة أثناء كلّ انعطافه. اعتدنا خفض رؤوسنا من الذلّ كالدجاج، غدونا مجوّفين بلا أمنيات، بدأت تعاستنا من قوائم

المعتقلين المرميّة على طاولات البحث والتحرّيات، وستنتهي لا محالة إلى موت مرسوم سلفاً.

توقّفوا للتزوّد بالوقود، فإذا بالمقابل لي يلقي بكلمات إنكليزية بالغة في فحشها، لكنني فهمتها جيداً، فما كان مني غير أن ابتسم له ببلاهة، لأنني فقدت الأمل بعودة طعم الأيام الأولى مع كاتلين.

صرخ أحدهم:

– طَلَبوا لنا الموت كي يسخروا من أيامنا.

أردف آخر:

– أعجبتهم لعبة غمسنا في العذاب، ونقلنا إلى عذابٍ آخر.

وأردف ثالث:

– على بزّاتهم شعارات تشبه الجماجم.

أشار رابع من الجالسين بيده ساخراً:

– لو كنتم رؤساء لتقدّم جنائزكم إكليل ورد فخم عليه عزاء كُتب بالورد أيضاً.

فما تمّت كلماته هذه حتى أتته رصاصة من الوراء ليُسبل يديه ميتاً.

الكُرّاسةُ التاسعة

زُمرةٌ تُدير ظهرها لأحلامها

١

عجلات الشعور بالموت لا تقف ولا تتأنّى، أن تموت بأيّ طريقة لهو أعلى شأناً وأرحم من أن تنتظر الموت ولا يجيء، آه لو كان الموت يجيء بمجرد الرغبة فيه!

سائق الحافلة كان من الجند، أصلع الرأس، جسيم البنية، حنطيّ البشرة، يسند على ركبته اليمنى بندقيته، وفي حزامه يختبئ مسدسه، يرافقه عن اليمين ثلاثة من الجند، غاضبو الملامح كان صوت الواقف بجانبي:

- يأخذوننا للإعدام؟

– قد يكون، ولكنني لا أظن.

– إذاً إلى أين تظن؟

– لا أعلم ولكن لن يختلف شيء، من ظلمات إلى ظلمات.

نظرت إليه بنصف عين:

– ما اسمك؟

– مُهان.

قالها وهو يبتسم مُكملاً:

– أنا من استبدل اسمي بعد أن بات اسمي الحقيقي غير صالح للاستعمال على لساني حين أنطقه في التحقيق، ولا حتى لائقاً بي وأنا هنا.

هززت رأسي:

– قليلٌ ما فعلته بحقّ نفسك، وكثيرٌ ما سيفعلونه بك.

اهتزّت الحافلة بقوّة فكدنا نقع، ثم سألني وأنا أشدُّ المقبض بيديّ الاثنتين:

– ما قضيّتك؟

– قصة طويلة.

تمايلت الحافلة فجأةً يميناً ويساراً حتى انفلتت يده من المقبض ووقع على أحد الجند الجالسين جانباً، فنهض الجندي وضربه ببندقيته أسفل ظهره، ثم ضغط بفمها على صدغه الأيسر وضغط على الزناد. كنت طوال الطريق أرى بقيّة حديثه من عينيه الشاخصتين من حرارة القتل، ودمه يعبر بين الأرجل. حمل ثلاثة من الجند الجثّة وألقوها من النافذة وهم يتضاحكون فيما بينهم:

- طعامٌ نادرٌ للسباع التي ستعبر الطريق هذه الليلة.

قالها ثالثهم وهو يسعل من شدة الضحك ويضرب حزامه برأس سوطه.

بعد وقت ارتفع صوت أحدهم وهو يتقاتل مع شبحٍ لا يراه سواه:

- إني جائع، إني جائع...

يردّدها وهو يتبع ما لا نراه بين الواقفين، يوازن نفسه بالقبض على أكتافنا وعيناه جاحظتان إلى الشبح. فهمت من طريقته أنه يرى شخصاً يحمل الطعام، وأجزم أن شدّة جوعه أرت عينيه ما لا نراه، فتبعه حتى ارتطم بزجاج الحافلة الأماميّ وهشّمها على شكل تعرّجات كثيفة، كسب منها جرحاً عميقاً في جبهته، وآخر بين عينيه، فسقط وانهال الجند عليه بأعقاب بنادقهم حتى انفصلت روحه ميتاً.

سحب أحدهم الجثّة ودفعها من باب الركّاب وهو يقول:

- ما أكبر حَظُّ السباع هذا اليوم!

تبعه ضحك الجنود الباقين والسائق الذي كاد يفقد ضبط القيادة من شدّة الضحك. غَيّرت على المقبض من يدي اليمنى إلى اليسرى وأنا أبكي دون انقطاع توقّفوا في مكانٍ لا يُعلم أيّ الجهات الأربع هو، أنزلونا أمام سجنٍ أبوابه من الحديد المصفح، سوره مرتفع تعتليه أسلاك شائكة شديدة الدقّة، أنزلونا فرادى، والقيود تُصلصل في معاصمنا وسيقاننا، وبعد نصف ساعة من تلاسن الجند وتشاحنهم في كيفيّة ترتيبنا وإدخالنا إلى حيث يريدون، هالني ما رأيت: أقبية مسقوفة بأصلب الخرسانات ومطليّة حوافها وجدرانها من الداخل بأقتم الطلاء، وصوت العسكري البدين يصرخ عبر مكبّر الصوت الصغير:

– أدخلوهم إلى زنازينهم حسب أرقامهم.

عند أبوابها أعطونا ملابس رماديّة واسعة وطلبوا منا استبدالها بالقديمة فوراً، فليس في هذه الزنزانة غير مرحاضٍ صغيرٍ في الركن لا يستره ساتر. خلعت ملابسي غير آبهٍ بهم وهم يتغامزون بينهم، ألقيت بملابسي القديمة أمام السياج واضطجعت كالبهيمة أحكّ جلدي مُدلياً لساني فوق شفتي السفلى. وبعد ساعات انتبهت إلى دمامل صغيرة نبتت على ذراعَيّ، وبثور ارتسمت على ساقَيّ وترقوتي، وعيناي تتبعان الجندي الذاهب والآتي أمام الباب.

في كلّ مساء يصلني صوت المطر وأنا أراقب شخير السجناء، وكأنهم يائسون من الإفاقة، غير مدركين واقعهم من خيالهم، شخيرهم متعبين توسّدوا الأرض الصلبة، كأننا ننتظر معجزةً تهبط من السماء لتخلّصنا.

أصبحوا في كل يوم يأتون لنا بخطيبٍ يقف على منبرٍ رخيصٍ ليَعظنا كضالّين، وما إن يأتي اليوم الذي يليه إلا ويقف مكانه ضابطٌ بدين يصفنا بالمجرمين والخطرين، أو تربويٌّ يتكلّم عن الأخلاق والإنسانية.

٢

اعتادت روحي قسوة هذا المكان الأخرس، صار من المحال أن تغادر روائح السجن جسدي، نسيت حياة الآدميين، وكدت أنسى حرارة يدي كاتلين التي لم تفارق جلدي لحظةً، فلم أعد أنطق غير مفردات السجن، حتى كدت أُصاب بالبكم بعد أن أرغموني على حمل كلّ جثّة إلى المقبرة القديمة. كلّ ذكرياتي الجميلة سرعان ما مَحتها عفونة هذا المكان، عدا أيام كاتلين التي أتمنى أن أحضنها فلا أتركها حتى تروي جفافي. لقد قضيت سنواتي هنا، أبكي غالباً كطفلٍ آذاه أقرانه.

* * * *

مضى زمنٌ لم نرَ فيه النور حتى جاء ضحى ذلك اليوم. تراكض السجناء في الممرّ الضيّق المفضي إلى الخارج، يتقدمهم صوت بكاء سجناءٍ رأوا النور للتو، يحاول منعهم جنديٌّ مكتنزٌ ذو عينين واسعتين، مدوّر الوجه. رأيت الدم يغطّي ملابسهم الزرقاء، هؤلاء

السجناء نسوا أسماءهم تماماً، فهم لا يعرفون بعضهم إلا بالأرقام التي أُلصقت على ظهورهم، سجناء مرميون تحت الهاربين، فنادى سجينٌ أعور سريعاً:

– لنفرّ بأرواحنا!

فتبعناه أنا وسجينٌ أبرص وصاحبي الأسود، وبعد هروب طيلة النهار انتقلنا سرّاً في الظلام، كنا متعبين مطاردين وجياع، نحلم ولو بجِزَزِ الخراف كي تقينا البرد. لم يفلح الأعور في الركض خلفنا، بدا به عرجٌ ثقيل، فكأنّه كلبٌ كسرت ساقه رصاصة صيّاد أخطأت دماغه، فاستمرّ في عَرَجِه حتى اقتنصه الجنود خلفنا على بعد فرسخ واحد، تأكّد لنا ذلك حين ارتفعت صرخته بعد انطلاق عيارٍ ناريٍّ خلفه، أسرعنا أكثر حتى اصطدمت أبصارنا بخندقٍ طويل، حُف بأسياخ من الحديد الغليظ، وأُوصلت ببعضها بسلكٍ كهربائي، انتظرنا لنرى ماذا سنفعل، كانت دمدمة أحذية الجنود وأصواتهم تعبر إلينا وهم يجرّون جثّة الأعور وصراخهم يتداخل:

– اسحب الكلب إلى هناك.

وآخر:

– ارفعه من عضده جيداً.

وآخر:

– اسحب اسحب...

انطرحنا جوار الأسياخ نتقيّأ التعب من مناخرنا حتى التحم المغيب بالأرض، وأعيننا تتسلّق في الظلام احتساباً لطارئٍ يطرأ. أمسك الأبرص بحفنة تراب كبيرة وحثّها على رأسه نادباً:

– الموت لنا، الموت لنا...

واستمر يحثّه حتى ابيض رأسه وغدت رطبةً كفّه. أوقفته ممسكاً ذراعه:

– توقّف توقّف!

فهدأت أطرافه، بينما خيطٌ طويلٌ من لعابه ينزلق من شفته ويقع في التراب، ثم قال:

– أما لو قتلونا وأراحونا.

لم أُعلّق على كلامه، وأرحت بصري في الظلام بعد أن جلست وعقدت يدي على ساقيّ، وأخذني سرحانٌ ثقيل، قطعه صراخه وهو يحثّ التراب كرّةً ثانية لكن هذه المرّة بحفنةٍ أكبر من الأولى:

– الموت لنا، الموت لنا...

أخذتنا سنةٌ حتى حدود الفجر، صحوت على أنينٍ يرشح من العتمة، فإذا به يئنّ وينظر إلى السماء منادياً:

– يا الله يا الله...

نهضت وسعيت نحوه وقدمي تهرس الرمل ببطء، وقلت له:

– مؤنسٌ القمر هذه الليلة.

– لم نرَ قمراً منذ سنوات، بعد عذاب الزنازين التي أغرقت صدورنا عتمتها.

أرحت كفّي على كتفه وأجلسته سائلاً:

– ألك أهل أو قرابة يُطلّون عليك ولو برسالة؟

أجابني وهو يعيد مخاطه إلى منخره:

– تصلني رسائل كثيرة من أقاربي، ظروف مُتّسخة من كثرة ما

تَفَحّصَتها أيدي الجند انمحت ألوان طوابعها وتلاشى عطر كلماتها، أخذت هذه الرسائل تتراكم بجانبي دون أن أفتح واحدة منها طيلة السنون التي قضيتها في السجن.

فما إن أتمّ جملته إذا بجندٍ كثيرين يحيطوننا بمصابيح زرقاء، وأفواه بنادقهم نحونا، خمسة يرتدون دروع ضد الرصاص، وحين وصلوا إلينا سدّد أحدهم بأخمص بندقيته ضربةً شديدة إلى وجهي أوقعتني على التراب، ثمّ أحاط بي رفاقه وأخذوا يركلون ظهري وبطني ورِجلَي، ليجرّني أحدهم من ساقيّ بعيداً عنهم وهو يشتمني ويصرخ في غضب:

– لعينٌ جبان...

ثم أركعوني وقيّدوا معصمي بالسلاسل، ليبادر آخر بضرب خاصرتي بعرض بندقيته، كذلك فعلوا بصاحبي الأسود، بينما رأيت صاحبي الأبرص راكعاً مقيّد اليدين والرجلين. تمازجت صرخاتهم وسخريتهم بنا، وضع أحدهم سكيناً قصيرة النصل على عنق الأبرص فاخترقت وريده ونطّ دمه الداكن على التراب، وقطرات ساخنة طويلة لطّخت صدره وبطنه وكتفيه، أُلقيت رأسه على الأرض ودحرجها الجند بينهم، بصقوا علي وعلى الرأس، واقتادوني والأسود مصحوبين بالصفع والنعت بالبذاءات، مكملاً أحدهم ما بدأه أصحابه صارخاً:

– من حرّضك على الفرار، من؟ قُلْ من؟

لم أنطق بحرف واحد سوى سيل الدم يتدفّق من بين فكّيّ وتحت لساني. رفعوني بعدها سائرين بي إلى الزنزانة، رأيت أثناء ذلك سجناء محمولين من أذرعهم على صخور كبيرة وجماعة من الجند يتناوبون

عليهم بالسياط الغليظة، ركلوني وأركبوني العربة وغادروا ودمي يرسل نقاطه على حوضها ويخفّ تدريجيّاً. بصقتُ من فرط ما بي من كُره وعذاب، وبصوتٍ مُتألم صرخت:

– لن تكسبوا من عذابي غيرً العذاب.

الكُرّاسةُ العاشرة

سُجونٌ تُدحرجُ النُزلاء

١

أراحت الشمس خيوطها على رؤوس السراديب التي حُفرت غير بعيدٍ عن السجون المتنوّعة في مساحاتها ومقاسات أبوابها، سراديب بجانب بعضها، سقوفها من الخرسانة الثقيلة المطليّة بطلاءٍ شديد السواد، شُدّت إليها كلاّبات طويلة وقيود حديديّة ومشانق من الحبال الغليظة.

في هذه الأمكنة لا يمكن أن تُشير إليك أصابع الأيدي إلا بالاتهام والانتقاص. هناك أُبقيتُ وحيداً بعد أن كانت رحلة العذاب هيّنة بصحبة رفاق الموت هنا، عذاب الآدمي أسهل من عذاب الحشرات

في هذه الأمكنة. انفتح الباب في الظلام المهيب، دخل رجلان، عرفت أنهما اثنان من صوت قدميهما وهما يقتربان، لم يكلماني، أجلسا سجيناً بجانبي، أحسست أن أطرافه نتنة من لهب السياط، فسألته:

– هل احترفت السياسة؟

أومأ برأسه أنه لم يفعل، فأكملت:

– إذن لمَ زجّوا بك هنا، أنا أعلم أنه لا يُولج أحدٌ في ظُلمات السجون إلا من كانت قضيّته سياسيّة، أو على الأقل كانت انتقادية لرموز الدولة أو عُبّاد العرش.

ابتسم بحزن ويداه على ركبتيه وفخذاه مضمومان إلى صدره، نظر إليّ وأطلق صوتاً على شكل آهةٍ قصيرة، فعلمت أن لسانه مقطوع. مسح الشجّة على أنفه، فدخل علينا لحظتها ثلاثة من الجند الجسام واقتادونا عبر ممرّ بالكاد يتّسع لشخصين متلاصقين، ظلمات لا يسبح فيها سوى مصباح في يد الجندي الذي يتقدّمنا. لم أُصدّق ما رأيت حين وقفوا بنا وانفتح باب الحديد ذو الدرفتين: مسبحٌ كبيرٌ من الوحل، تطفح على سطحه الرواسب والنجاسات، كان إحدى وسائل التنكيل هنا، دفعونا فيه بعد أن مزّقوا عنا ملابسنا، أخذنا نقاوم ثقله ودفع مائه النجس، لم يكن السجين المقطوع اللسان يطلق صوتاً غير: آ، آ، آ... كان صوته يؤجّج لوعتي أكثر ممّا هي عليه.

ساعة ونصف الساعة وأنا وهو نصارع نجاسة الوحل ورائحة الرواسب، كلّما حاول أحدنا الخروج أعادوه ضرباً بأعقاب البنادق

وركلاً ببطون الأقدام، كانت ضحكاتهم ونكاتهم الخليعة تسبح فوقنا، إضافةً إلى كرات الوحل التي نرمى بها من كلّ اتجاه، حيث تتزايد ضحكاتهم كلّما أصابت كرةٌ هدفها من وجهينا.

٢

صدأٌ ذائبٌ يغطّي ماسورةً خارجةً من التقاء السقف والجدار، يقطر لزوجةً مصحوبةً برائحة مركّزة، وطنين البعوض الذي لا يهدأ، وشوشة لا أدري من أين تأتي رغم ترصّدي كل الجهات، عدا صيحات السجناء التي تأتي مسرعةً من السجون الانفراديّة، والتي غالباً ما تكون جرّاء ويل السياط أو من جرّ الأجساد على الألواح والحديد الحار. الحبس في السجن الانفرادي يقتل حتى السباع، لم أعد أرى أبعد من القضبان، هذا ما أُحلنا إليه بعد سباحة طويلة في وحلٍ دُفِعَ فيه آلاف السجناء والمحكومين قبلنا.

آهاتٌ متلاحقة يصدرها رفيقي هنا، وصوت أنفاسه الثقيلة وكأنّ صدره اختنق بما يودّ قوله من شكوى وبكاء، أراني الضوء المتسرّب من الكوّة شجّةً في خده اليسرى وجرحاً طويلاً بالطول فوق حاجبه الأيمن، وآثارَ أظفار على عنقه حتى عظام صدره، برهاناً على مدى الأذى الذي لاقاه هنا. فضولي فقط أن أعرف تهمته أو قضيّته التي أتت به إلى هنا.

في السجون الانفرادية لا يفصل بيننا سوى قضبان غليظة دون

طلاء، يتقلّب في ركنه كالجرذ المريض، ولُعابه يخرج متقطّعاً كل لحظة، لا يمنعه سوى ظهر ذراعه الكثيفة الشعر، صحت به:

– هيه.

فتح عينيه وأطال ينظر إليّ وأنا أقول له:

– هل أنت بخير؟

يجيبني برمشة عينيه أنه بخير. وقفت ممسكاً القضبان الفاصلة بين سجنينا:

– أتعرف أننا كنّا ثلاثة عشر رفيقاً هنا، أدخلونا بتهمة واحدة، ذهبوا كلهم سريعاً إلى الموت إلا أنا، أظنّهم ادّخَروني لعذابٍ لم يذقه سجين هنا.

وضحكت، وضحكت، وضحكت. صدمتني ردّة فعله، إذ لم تتجاوب ملامحه معي بأيّ حركة أو إشارة، هبطت كل معنوياتي في كسبه صديقاً هنا، كان ذلك ظهراً إن لم أكن مخطئاً، فالوقت هنا ظلمات تولج في بعضها، فلا قياس على الوقت إلا بالوجبات الثلاث، بها أُحدّد أكان صباحاً أم ظهراً أم مساءً.

شمعة صغيرة بيضاء، عليها يتدفّق الظلام ويعضها بسواده وكآبته، يضعها على قطعة نحاسية على الأرض، السجين المقطوع اللسان في الزنزانة المقابلة يحيطها بيده المتجعّدتين السوداوين، ويئنّ. الظلام شديد الكثافة من حوله، وشمعته تقاوم بضوءٍ ضئيل، نصف وجهه مليء بالبثور والكدمات والجروح المصطفّة أسفل شفته، طريقة جلوسه ككاهن أحدب نسيه العبّاد من الصلوات، وأوصدت الدنيا عليه آلامها وجنون عذابها. ارتفع أنينه فقلت بصوتٍ عالٍ:

– إنه حقد السياط وأفواه الشتائم.

ضغطتُ برأسي على القضبان مضيفاً:

– أنت.

ارتفعت عيناه إليّ ولم يجب، فقلت بفم مجروح اللثّة والشفة:

– اللعنات أكبر من أملٍ تربطه بشمعتكَ الصغيرة هذه، والتي لن تدوم إلا مطفأةً في بطون العتمات.

فردّ بلسانٍ ثقيل وهو يُشير بسبّابته اليسرى والغضب ينتشر على ملامحه:

– آ.. آ.. آ.. آ..

ارتفع صوتي أكثر:

– لن تموت حرّاً... لن تموت حرّاً...

سحب يديه إلى أسفل وعاد ينظر إلى الشمعة ويدير يديه من خلفها وأمامها، فالتفتُّ إليه مرةً أخرى قائلاً:

– تخيّل... حتى أسماؤنا لا معنى لها هنا!

ثمّ وأنا أنظر يميناً ويساراً:

– أسماء السجناء حين استُبدلت بالأرقام كان صنيعاً في مكانه، لأنها أسماء من القسوة أن يُنادى بها أصحابها هنا، فحمداً للرب على نعمة الأرقام.

ورحت أضحك وأضحك وأضحك، وهو مستمرٌّ يدير يديه على الشمعة ويقرّب إليها جِلْدة وجهه المريضة.

٣

انصرم يومان وهم يدفعون بالطعام من فتحة مستطيلة أسفل الباب، كنت أوقظه كلّ مرّة لكنه يفتح عينيه ولا يومئ أو يسأل عن شيء، فقط يُطيل النظر فيّ وأنا أنكبّ على الطعام وكأني حصانٌ حُرم الماء بعد سباقٍ طويل. هكذا حتى جاء اليوم الثالث، غدت الوجبات مصفوفة في إثر بعضها، لم يلفت انتباهي عدم تقلّبه أو ثباته على طريقة نومه، استنكرت بشدّة فاقتربت منادياً:

– هيه، هيه.

لكنه هذه المرّة لم يفتح عينيه ولم يتحرّك، فطنت لعُفونةٍ داكنة بين فخذيه وتحت بطنه، ودودٌ أبيض يخرج من تحت إبطيه ومن منخريه الواسعين، أيقنت أنه مات من يوم أو أكثر.

مضت ساعات ولم يأت أحد هنا على كثرة ندائي الذي لا يردّ عليه سوى صداه من آخر الممرّات ومن داخل الزنازين. رأيت على منخريه خيطاً طويلاً من الدم اليابس، ممتداً إلى ذقنه، عابراً شفتيه، وقيئاً أسود على هيئة قطع صغيرة، رائحته شديدة النتانة، ولعفونتها قوّة تجلب الدوار. وعندما أدخلوا لي وجبة الصباح صحوت على

صلصلة المفتاح في الباب وضجيج في زنزانته، فإذا عمّال النظافة يزيلون كل العوالق التي نزلت من جثّته بعد أن غادروا بها.

بعد أيام طمست يدُ العمى ضوءَ عينيّ وأصبحت أبصق لعابي المختلط بدم لثّتي اللزج كما تنفث الأفعى سمّها. لقد انتظرت هذه الساعة من أشهر عندما أخذ بصري يضيع كالمبصر من تحت الماء، صرت أتبع الصوت فقط، صوت الغضب المنبعث من أفواه الجند. كان ذلك بعد نوم دام ساعات طويلة، عندما فركت عينَيَّ مستيقظاً متسائلاً في نفسي عن العتمة المدلوقة تحت أجفاني السوداء، شعرت بأصابع تزحف على وجنتيّ وبهواءٍ قادم من هفهفة يد أحدهم وهو يُشير بها كي يختبر بصري، ثم قالً بلغة مستهترة:

– لا فرق... من أشهر وأنت في ظلام مستمرّ.

ثمّ نَخَسني بعصاه لأتقهقر إلى الورًاء وأقع، فدلقت عيناي خيطين ساخنين من الدمع، وبدأت تحت عظام صدري عَبَرات تكبر شيئاً فشيئاً.

لقد صعدت روحي سلالم الظلمات التي لا تنتهي من التعمّق في السواد الأشدّ حلكةً، استحلتُ حشرةً قُصّ قَرنا استشعارها فغدت تصدم الجدران وتنزلق في المنعطفات، تفاصيل تزدحم على مدخل ذاكرتي الضيّقة، تعرضها واحدةً واحدة، رفاق السجن والموت معاً، أشهر العذاب المغموس في أظلم السجون وأنتن الأمكنة وأضيق الحفر، أنّات السجناء المستجدية، وصحيات الجند الغاضبة، الخوف الذي يأكل الروح كل يوم يزداد ولا يهدأ له فكّ، الأمنية التي

لا تفارقني أن أموت بأي شكل من الأشكال، المهم أن أموت، لقد غدا الموت خياراً آمناً، ومطلباً صعباً في الوقت ذاته، مضت روحي تجرّ خيباتي الحياتيّة على شريط الذكريات وتصبّ على رأسي أكوام الندم.

لمعت في ذاكرتي شهور القسوة هنا، والتي كانت هذه اللحظة امتداداً لمعانيها المتعفّنة وذكرياتها اليابسة في ذهن كلّ من مرّ بها. تذكرت رائحة النار، نارٌ تخرج من رأس الشمعة التي كان يحضنها السجين المقطوع اللسان، وهو يرى في ضوئها انطفاء أيامه وذوبان حسراته، ولو أنني أتساءل بشدة كيف أباحوا له أن يحتفي بشمعةٍ في ليل السجن! أمن تعذيب النفس البشرية تركها تتأمل ضوء الشموع؟! فقلت بصوتٍ جهوريّ وبلهفة:

– من يوقد الشمع، من يوقد الشمع؟!

لكن صدى الممرّات لم يردّ علي جواباً لسؤالي، بل زف خبر أنّ لا صوت لي حين نطقت!

آمنت أنّ لغة الدم هي اللغة الرسميّة لهذه البلاد، ومن لا يجيد التحدّث بها في هذا العصر قد يخسر دمه، لقد استحالت البلاد فراشاً مغطّى بالدم، يتمدّد عليه الموت، ويُسوّي الطغاة شرشفه المتّسخ وهم يتثاءبون.

بعد أيام وصلت نهاية الجميع في هذا المكان، أخذوا السجين الأسود وأجلسوه على مكعّبٍ خرسانيّ مطليّ بدهانٍ أبيض، وسكبوا عليه الماء البارد من خرطومٍ يخرج من خلف الخرسانة، ثم حقنوه بعقارٍ يسبّب الشلل، ومضوا مغلقين عليه الباب الخشبيّ. أما أنا فقد

قرأوا عليّ صورة من الحكم الصادر بحقّي بأن أموت موتة طبيعيّة، كانوا يريدون أن تكون أمنية الموت هي قاتلتي، وها أنا أنتظر المنيّة لتَدْفقَ لُعابَها على روحي.

يناير ٢٠١٤

البريد الإلكتروني للكاتب

majedsuleimann@gmail.com

قُبض على برهان مع اثني عشر شخصاً أخرين بتهمة التخطيط لمحاولة انقلابية، ليجدوا أنفسهم في عالم السجن المرعب...

من السجن إلى الصحراء، بين الهرب والأمل والحب، قضى برهان أيامه على حافة الموت، بعد مقتل أصدقائه جميعاً.

في السجن يكون الموت خياراً أسهل من الحياة، ويتحوّل قرار السجان الحفاظ على حياة السجين نوعاً من العذاب الإضافي، خاصّة حين تكون اللافتة المرفوعة على باب المدخل "رفقاً بالسجناء فهم آدميون".

ماجد سليمان قاص وروائي سعودي. يعمل في جامعة الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود. سُجّل اسمه ضمن أدباء البيبليوغرافيا التحليليّة عن الأدب للعام ٢٠١١. ساهم في إعداد مجلة "الفنون" السعودية عام ٢٠١٢. صدر له في الرواية "عينٌ حمئة" و"دمٌ يترقرق بين العمائم واللحى"، وفي القصة "نجمٌ نابضٌ في التراب".

ISBN 978-6-14425-792-0
DAR AL SAQI
الساقي
www.daralsaqi.com
9 786144 257920 >